روايات الهلال

منمنمات تاريخية

١

سعد الله ونوس

« منمنمات تاريخية »

مسرحية

سعد الله ونوس

دار الهلال

الغلاف للفنان :
حلمى التونى

المنمنمة الأولى

الشيخ برهان الدين التاذلى

أو

الهزيمة

مـؤرخ قـديم : .. ثم دخلت سنة ثلاث وثمـانمائة والخليـفـة أمـيـر المؤمنين المتـوكل على الله والسلطان الناصر فرج بن برقوق . وكـان سـعـر غرارة القمح خمسين درهماً . والشعير والفول بثلاثين فـمـا دونهـا ، والأرز بمائة وخمـسين درهـماً. وهذا الغلاء فى مصر والشام لم يعهد من قبل. وفى التاسع من المحرم قدم البريد من دمشق بأن تيمور لنك نزل على سيواس .

وفى ثانى عشره يوم الخميس ، استقر القاضى نور الدين بن مكى الدمـيـرى قـاضى قـضـاة المالكيـة عـوضـاً عن القـــاضى ولى الديـــن عبد الرحمن بن خلدون على مال وعد به .

وفى سلخه انحصر السلطان من قاضى قضاة المالكى ابن مكى الدميـرى فـعزله وأعـاد ابن خلدون المالكى .

وفى صـفـر ، أوله الثـلاثاء ، فى ثانيـه وُجِد شـاب أمـرد قـد قـتل ورمى فى التـربة التى بالحدرة. فأخِذ وغُسِّل وكُفن بوزره، ولم يعرف من هو، ولا من قتله . نسأل الله العفو.

وفى سابعه وصل إلى دمشق مبعوث السلطان الأمير آسبغا ومعه رسالة إلى النائب والقضاة بخروج العساكر الشامية إلى حلب ، وفيها يحضّ على قتال تيمور ، ويقول وإنّا واصلون عقب ذلك.

وفى خامس عشره خرج نائب دمشق ومعه العساكر الشامية قاصدا حلب ، ونودى فى البلد بمنع الناس من كراء الدواب للسفر ويمنع الناس من المسافرة ، ونودى أيضا بأمر القضاة بالكف عن المنكرات .

وفى ربيع الأول ، فى ثانيه ، عمل السلطان المولد النبوى على العادة .

وفى خامس عشره وصل بريدى إلى دمشق ومعه بطاقة بكسرة العسكر الشامى وسقوط مدينة حلب فى يد تيمور لنك . وقد فعلوا فيها من الأفعال الشنيعة ما تشيب له النواصى على ما سنبين ، نسأل الله النجاة . ونودى على الناس بالتحول إلى البلد ، والاستعداد للعدو . فاختبط الحال، وحصل الضجيج والبكاء ، وأخذ الناس فى النقلة من حول البلد إلى داخلها .

وفى ثامن عشره وصل الهاربون من حلب وحماه ، وأخبروا أن تيمور متوجه بعساكره إلى دمشق .

وفى تاسع عشره همَّ نائب الغيبة فى دمشق بالفرار ، فوقف له العامة وأهل القبيبات ينتظرونه، فلما خرج ضربوا بالمقاليع وسلُّوا السيوف ونالوا منه ، فرجع إلى دار السعادة ، وفى نهر بردى يجرى الماء فى غاية الضحالة وقد كثرت الضفادع فيه كثرة فاحشة .

★★★

تفصيل (١)

(ساحة صغيرة وسوق تجارية ..)

المنادى : **(مع دقات الطبل)** يرسم نائب الغيبة ويأمر . يا أهل الشام يُمنع إشهار السلاح أو الضرب بالمقلاع. يا أهل الشام يُمنع التعرض لمن أراد السفر ، وتسلُّم المبيع بالأمان .

(يعترضه شاب يتقلد سيفاً ، ويتجمهر الناس ، دلامة التاجر وابنه علاء وآخرون ..)

أحمد : اخرس . قطع الله لسانك .

المنادى : إنها أوامر النائب .

أحمد : اذهب ، وضع أوامر النائب في وجوه .

المنادى ومن تكون أيها الغر . ! اشهدوا يا ناس إنه يسبّ النائب .

أحمد : **(مجرّداً سيفه)** إمش قبل أن ابتلي بك .

المنادى : **(وهو يخرج فزعاً)** انتظر حتى أخبر النائب . أيها الناس سأطلب شهادتكم .

أحمد : ومن يخاف هذه الحرمة . ! إمش وإلاّ بعجت بطنك وطبلك

دلامة : لماذا تحاملت عليه أيها الشاب ؟ ..

أحـــمـــد : ألم تسمعه . ! إنه يحض الناس على الفرار .

دلامـــة : هذه شئون خطيرة ، ولايجوز أن يخوض فيها إلا الكبار .

أحـــمـــد : بل يجب أن يخوض فيها الجميع .

دلامـــة : والله ما أفلحنا إذا صار كل واحد فى هذه المدينة رأساً .

أحـــمـــد : والله ستضيع رءوسنا إذا بقى هذا النائب رأساً .

دلامـــة : ولكن أخبرنا من أنت ؟

أحـــمـــد : أنا ابن الشاغور . قدوتى وشيخى برهان الدين التاذلى ، فأخبر بما علمت .

(يخرج)

بهـــاء : ما أعجب جرأته !

دلامـــة : تطاول ولكاعة .. لا أصدق . الشيخ التاذلى عالم تقى، وهو يعرف الأصول والمقامات .

(يدخل رجل غريب رث الهيئة يكاد يتساقط من الإعياء، ومعه غلام يسنده ، يلتف حولهما الناس)

رجـــل ١ : الرجل قادم من حلب .

رجـــل ٢ : أكنت هناك ؟

الحـــلـــبـــى : إى وربى الذى نجّانى من الهلاك .

دلامـــــــة : ماذا وراءك ؟

الحـــلـــبـــى : الجوع والفزع .

دلامـــــــة : نسألك عن حلب وتيمور !

الحـــلـــبـــى : ضاعت حلب، ولم يبق فيها ما هو قائم إلا مئذنة من الجماجم .

رجـــــل ٢ : مئذنة من الجماجم !

الحـــلـــبـــى : إى وربىَ . بنى من رءوس القتلى مئذنة لا مثيل لها محيطاً وارتفاعاً .

رجـــــل ٢ : يا عفو الله . !

رجـــــل ١ : هذه أشراط الساعة .

دلامـــــــة : وعسكرنا . !

الحـــلـــبـــى : عسكرنا . ! ماذا أخبركم .. لم تبدأ المعركة حتى انهزم الأمراء والفرسان . داسوا المشاة وهم يولّون الأدبار . وسيوف الكفار وراءهم تنقضّ على الراكب والراجل . جرت مقتلة عظيمة ، ولم يجر قتال . يقولون إن أمير حلب واطأ تيمور ، والله أعلم بحقيقة الحال .

رجـــــل ١ : لا يواطىء هذا الكافر إلا كافر مثله .

رجـــــل ٢ : كم مرة هزمتنا الخيانة دون قتال . !

دلامـــــة : دعكم من الأقوال والحكايات .. هذا العدو لا يحتاج إلى مواطأة أمير . إنه يقتحم الممالك والبلاد كأنه إعصار .

الحلـــبـــى : إى وربى إنه إعصار من الدمار .

دلامـــــة : وهل تعرف أين وصل الآن ؟

الحـــلـــبـــى : فى الطريق ، علمت أنه وصل حماة .

رجـــــل ١ : إذن هو أقرب مما نحسب .

رجـــــل ٢ : لعله الآن فى حمص .

رجـــــل ١ : ومع هذا لاشىء ينبىء بأن السلطان قادم .

رجـــــل ٢ : ماذا نفعل ؟

الحـــلـــبـــى : احملوا ما خفّ وغلا ، واطلبوا أطراف البلاد .

رجـــــل ١ : أهذا ما تنصح به . !

الحـــلـــبـــى : لو رأيتم بعض ما ارتكبوه فى حلب لقلتم هذه هى النصيحة .

رجـــــل ٢ : ربما كان الرحيل هو الحل .

(يبدءون بالانسحاب)

دلامـــــة : ما أعلنه النائب هو التدبير السديد . نسلّم المدينة بالأمان .

رجـــــل ١ : يانجيُّ الألطاف نجُنا مما نخاف .

الحـــلـــبـــى : يا أهل الخير .. لا تنسوا حاجتى .

دلامـــــــة : وما حاجتك ؟ ..

الحـــلـــبـــى : لقمة تسد الرمق ومكان آوى إليه .

دلامـــــــة : ألا تحمل مالاً أو ذهباً . !

الحـــلـــبـــى : والله يا أخى كان لى أهل وكنت ميسور الحال .. **(يغصّ بالبكاء)** .

صـــــــوت : **(بين الأنين والصياح)** يامُه .. يامُه

دلامـــــــة : جاء شعبان المجنوب .. عمى الجامع قريب ، وقد تجد فيه رغيفاً وحصيراً ..

(يدخل شعبان . مجذوب . ثيابه أسمال غريبة ، يبتعد دلامة)

شـــعـــبـــان : يامّه . .. يامّه .. هاتى بزّك يامه . جوعان .. حليب .. حليب . يامّه . **(يحدق فى الغلام الذى يندس فى خاصرة أبيه . بهدوء مخيف)** هاتى بزّك يامّه ..

الحـــلـــبـــى : **(منتفضاً)** هذا غلام . إنه ابنى .

شـــعـــبـــان : يامّه جوعان .

الحـــلـــبـــى : ونحن أيضا جائعان . منذ يومين لم نأكل شيئاً .

ليتنا متنا مع أهلنا فى حلب .

شـــعـــبـــان : **(بعذوبة)** جائعان . !

الحـــلـــبـــى : يا ابن الحلال يكفينا ما نحن فيه .. **(يضم الغلام إليه)** لماذا نجونا .. أما كان الموت أستر .!

(يُخرج شعبان من كيسه رغيفاً وسفرجلة . ويضعهما فى حضن الرجل)

شـــعـــبـــان : يامّه .. هاتى بزّك يامّه

(يدخل المنادى، يحرسه مملوكان يشهران سيفيهما ..)

المـــنـــادى : يرسم نائب الغيبة ويأمر .. يا أهل الشام يُمنع إشهار السلاح أو الضرب بالمقلاع . يا أهل الشام يمنع التعرض لمن أراد السفر . ونسلم المدينة بالأمان .

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (٢)

(ديوان فى قلعة دمشق . نائب القلعة الأمير عزالدين آزدار ، ومعـــاونه شهـاب الدين الزردكاش .. والشيخ برهان الدين التاذلى)

التـــــاذلـى : المدينة تجيش وتضطرب أيها الأمير .

آزدار : ما الأمر ؟

التـــــاذلـى : تبلبلت الخواطر ، والناس تتزاحم على السفر .

آزدار : أيخلون المدينة . ؟

التـــــاذلـى : روَّعتهم الأنباء ، وليس من يقودهم فى هذه الشدة .

أزدار : ماذا يفعل نائب الغيبة إذن . !

التـــــاذلـى : حاشا الحاضرين .. إنه يخرأ فى سرواله .

آزدار : ياشيخ !!

التـــــاذلـى : تلك هى الحقيقة . ما ظهر من جبنه وحمقه قطع حيل الناس . ألا تعلم ! ولولا رجال القبيبات وفتيانى لفرَّ تاركاً البلد وشأنه . وفى هذه الساعة يدور مناديه داعياً إلى تسليم البلد بالأمان .

آزدار : يسلم البلد . !. ومن أجاز له ذلك . ؟ ما رأى السلطان . ؟ ما رأى العلماء والأعيان . ؟

التـــــاذلى : وهل سأل أحداً رأيه .

آزدار : لا .. لا نوافق على تسليم البلد . هذا طيش وحمق .

التـــــاذلى : ولهذا فإن المدينة تستجير بك أيها الأمير .

آزدار : ماذا يمكن أن أفعل .. أنا أتصرف فى هذه القلعة . وقد حصّنتها أفضل تحصين . وتهيأت مع رجالى لكل ما يأتى .

التـــــاذلى : أعرف أنك حصّنت ، وأنك تهيأت . مثلك أيها الأمير لا يقال له ما ينبغى أن يفعل . لكن المدينة وقلعتها جسد واحد . وتحصين بعض الجسد لايفيد ، إذا كانت بقيته مكشوفة يتناهبها الرعب والفوضى .

شـهـاب الدين : أيأذن لى الامير . ؟

آزدار : تكلم .

شـهـاب الدين : ما يقوله الشيخ صحيح . تحصين القلعة لا يكتمل ، إلا إذا حُصِّنت المدينة ، وضُبِط أمرها .

آزدار : سلطتى لا تشمل المدينة .

التـــــاذلى : منذ اليوم ، يجب أن تشمل سلطتك المدينة .

آزدار : هل أدّعى حقاً ليس لى . !

التـــــاذلى : فى هذا الوقت ، المدافع عن الحق له كل الحقوق .

شـهـاب الدين : ومن أجدر منك بحماية المدينة حين يتخاذل نائبها !

آزدار : أخشى أن يُنسَب ذلك إلى الطمع ، أو أن يغضب السلطان .

التـــــاذلـى : لا يجوز أن تشغل بالك هذه الهواجس . إننا لا نبسط لك نفوذاً ، بل نلقى على عاتقك أمانة ثقيلة . فكيف يمكن أن يُذكَر الطمع ، أو أن يغضب السلطان !

شهـاب الدين : من المهم أن تظل بمشق حصينة، سواء عزم السلطان على الحرب . أم قُدِّر علينا أن نواجه العدو وحدنا .

التـــــاذلـى : هل ترضى أيها الأمير أن تسلم المدينة بلا قتال ؟

آزدار : أعوذ بالله .. كيف أرضى . ؟

التـــــاذلـى : إذن تولَّ أمرها ، واضبط شئونها .

آزدار : ونائب الغيبة .. ! ماذا نفعل به . ؟

التـــــاذلـى : دعه يهرب ، أو ارفعه إلى القلعة .

آزدار : لا أستطيع أن أرفعه إلى القلعة دون أمر سلطانى .

شهـاب الدين : نطلب منه أن يسافر إذا أحب ، أو يلزم قصره .

التـــــاذلـى : فليسافر ، ولنغلق أبواب البلد خلفه .

آزدار : وهل يشاطرك العلماء ، والأعيان رأيك ياشيخ ؟

التـــــاذلـى : العلماء والأعيان أهل دين ونخوة . وهم يعرفون أنهم مكلَّفون بحفظ البلد وحمايته ، اللهم صلِّ على محمد

وعلى آله ، وصحبه أجمعين .. كنت أترجَّح بين النوم والصحو ، حين وافاني حبيب الله ، النبى المصطفى. اقشعرَّت الظلمة حوله ، وتهاربت . كان يلفّه سربال أخضر ، وكان وجهه كالسراج المنير . اقترب ، وفاض حولى خضرة ونوراً . وبصوت عميق حنون قال لى : هذه المدينة عزيزة على قلبى ، فانهضوا وحاموا عنها . والذى بعثنى رسولاً ، وأسكننى جنته، لن تقوم لكم قائمة إذا دخلهـــا عدوى تيمـــور . ولا تخشَوا الموت فأنا جالس على الضفة . ثم انفتل عنى وابتعد . فزعت من الفراش محموماً ، فتراءت لى نجمة تنأى ، وتختفى فى العتمة . قل لى أيها الأمير .. أهناك تكليف أوضح من هذا التكليف !

آزدار : إن شاء الله ، لن يدخلها ونحن أحياء .

التـــــاذلى : إذن فلنبادر إلى تهدئة الخواطر ، وتنظيم الدفاع عن الأسوار .

آزدار : ليحضر المنادى .

شهـاب الدين : سأدعوه حالاً .

آزدار : وأنت ياشيخ ، اجمع العلماء وأدعُ الناس إلى المصابرة والجهاد .

التـــــــاذلـى : اتكل علىَّ فى هذا الأمر .

(يتلاشى الضوء)

تفصيل (٣)

(بيت فى المدينة . خديجة ومروان ، زوجان شابان) .

مـــــــروان : هل نتّكِل على الله ؟

خـــديجـــة : كما تريد .

مـــــــروان : لايبدو أنك راغبة .

خـــديجـــة : لاتهتم بى . قلت لك فصّل وأنا ألبس .

مـــــــروان : هل تفضلين أن نبقى . ؟

خـــديجـــة : أفضل ما تختاره .

مـــــــروان : أصدقينى القول . هل تريدين السفر أم البقاء ؟

خـــديجـــة : ألا تزعل ؟

مـــــــروان : وَلِمَ الزعل ؟

خـــديجـــة : أفضل البقاء .

مـــــــروان : هذا رأى أخيك .

خـــديجـــة : لا .. لا علاقة لأخى ، هذا ما أشعر به . ينعصر قلبى، كلما فكرت فى السفر . ومن يدرى .. قد نخسر بيتنا ، والنّوْل الذى هو رزقنا .

مـــــــروان : نعم .. النّوْل . ! وهل يكسر رجلىَّ إلا هذا النول ..

تعبت كثيراً حتى ارتفعت من أجير إلى صاحب نول.

خـــديجـــة : ماذا يحل بنا إذا ضاع . !

مـــــــروان : ولكن ما نفع النول والبيت إذا خسرتك .. لم نكد نبدأ حياتنا . إنى خائف عليك .

خـــديجـــة : فوّض الأمر لله يا ابن عمى . لن يصيبنا إلا ما يصيب الجميع . وإذا بقى المرء مع أهله وقومه خير من أن يتشرد فى الدروب والفلوات .

مـــــــروان : لو علمت أفعالهم فى حلب .. فظاعات .. فظاعات تقشعر لها الأبدان .. لا .. الأسلم هو أن نسافر حتى تنجلى هذه الغمّة .

خـــديجـــة : الصُّـرَّة جاهزة ، وفيها كل ما يمكن أن نحمله .

مـــــــروان : نعم .. السفر أفضل من البقاء . القادم من حلب قال لنا : تلك هى النصيحة . نعم .. علينا أن نتوكل على الله ونسافر . ألم تنس شيئا . ؟

خـــديجـــة : كم مرة تفقدنا الصرة . !

مـــــــروان : كأنك غاضبة .

خـــديجـــة : بل تعبت من التردد والجدل . منذ الفجر ونحن نعذب أنفسنا . إذا عزمت فلنمشِ ..

مـــــــروان : أتظنين أن القرار سهل ! أن أترك كل شىء .. النول،

والبيت وعملى .. أنا أيضا متردد . ولكن حين أتخيل أنهم يفعلون بـ .. بنا تلك الشناعات ، ينطفىء الضوء فى عينى .

خـــديجـــة : لاريب أنك تقدر الأمور خيراً منى .

مـــــروان : أتقولين ذلك مسايرة أم اقتناعا .؟

خـــديجـــة : يا ابن عمى .. أعيد وأكرر . فصِّل وأنا ألبس .

مـــــروان : ما أحلى وجهك هذا الصباح . ! المال يروح ويجىء .. أما أنت .

فأين أجد أنتِ **(يضمها ، ويهويان معا على السرير)** كيف يمكن أن أخاطر بك . ! هل أخاطر بالحرير ، وفواكه الجنة . !

خـــديجـــة : ألن نسافر . ؟

مـــــروان : دعينى أتزود من عسلك قبل السفر .

خـــديجـــة : لا .. ليس الآن .. مروان ..

(طرق على الباب)

مـــــروان : **(يقفز مبغوتا ، ويسوى ثيابه)** من ؟ .. توارى حتى أفتح الباب .

(يقترب من الباب) من ؟ ..

أحـــمـــد : **(من بالخارج)** أنا أحمد .

مـــــــروان : (وهو يفتح الباب) إنه أخوك ..

أحـــــمـــــد : (وهو يدخل) خفت ألا أجدكما ..

مـــــــروان : (بعصبية وحزم) أنا وخديجة ، قررنا أن نسافر اليوم .

أحـــــمـــــد : هل وافقت ياخديجة . ؟

خـــديجـــة : ربما كان مصيباً يا أخى .

مـــــــروان : لن نعود إلى مناقشة الموضوع . يكفى نقاش الأمس.

أحـــــمـــــد : لم يعد هناك ما نناقشه .

مـــــــروان : ماذا تعنى ؟

أحـــــمـــــد : لا سفر بعد الآن .

مـــــــروان : هل تفرض علينا البقاء . !

أحـــــمـــــد : فارس القلعة وأميرها هو الذى يفرض على الجميع البقاء . أغلق الأبواب ومنع السفر .

مـــــــروان : منع السفر . !

أحـــــمـــــد : وقرر أن يحصّن المدينةَ ، ويسلّح الرجال .

مـــــــروان : لعلها شائعة . إذا لم تكن متأكداً ..

أحـــــمـــــد : منذ الصباح ومنادى القلعة يعلن الأوامر فى المدينة ، عما قليل سيكون هنا فى الحارة .

مـــــــروان : أرأيتِ ما فعله بنا التردد . ؟

خـــديجـــة : وما ذنبى . ! هل عوقتك أو خالفتك ؟

مـــــــروان : لم ألمس منك حماسة ولا قبولا .

أحـــمـــد : خيراً فَعَلتْ .

مـــــــروان : (غاضباً) لماذا ؟ ألا تعرف ماذا فعلوه بأهل حلب ونسائها .أتظن أنى قررت السفر خوفاً على نفسى .. لا والله ما قررت السفر إلا خوفاً على خديجة .

أحـــمـــد : الفرار لا يحمى خديجة .

مـــــــروان : ماذا يحميها إذن ؟

أحـــمـــد : أن نقاتل من أجلها .

مـــــــروان : أقاتل . ! ولكنى لم أحمل سلاحاً فى حياتى .

أحـــمـــد : اليوم ، يجب أن يحمل كل رجل سلاحاً .

مـــــــروان : إنى صاحب نول . ولا أفهم إلا فى الحياكة والحرير.

أحـــمـــد : لا يحتاج السلاح إلا إلى العزيمة .

مـــــــروان : ما رأيك يا خديجة ؟

خـــديجـــة : هذا أمر يقرره الرجال .

أحـــمـــد : إسمع يا ابن خالى وصهرى ، باب السفر مسدود. ونحن فى هذه المدينة أمام خيارين . إما أن تستباح الحياة والأعراض ، وإما أن نقاتل . فماذا تختار ؟

مـــــــروان : هل تعتقد فعلا أنى أصلح للقتال . ؟

أحـــمـــد : ماذا ينقصك ؟

مـــروان : لست مدرّبا ، وليس لدى سلاح .

أحـــمـــد : سأوفر لك السلاح والتدريب .

مـــروان : متى ؟

أحـــمـــد : اليوم ... بل الآن .

مـــروان : هيا بنا .

أحـــمـــد : هل عزمت ؟ ..

مـــروان : قلت .. هيا بنا .

أحـــمـــد : أخيراً وجدت مروان الذى أتمنى .

خـــديجـــة : وأنا سأفك الصرة وأهيىء لكما الغداء.

(يخرجان) حماكما الله

المـــنـــادى : (يتناهى صوته من بعيد ، ثم يقترب تدريجيا)

يا أهل الشام .. يرسم نائب القلعة ويأمر : من يهرب يُنهَب . والمدينة تُحصَّن وتُحفَظ .. ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً ، يا أهل الشام .. يرسم نائب القلعة ويأمر : المدينة تحصن وتحفظ .. ومن أراد سلاحا أعطاه الأمير سلاحا .. يا أهل الشام من يهرب ينهب .

(تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفـيـه ، ربيع الأول جـاءت الأخـبـار بوفـاة صـاحب اليـمن الملك الأشـرف إسـمـاعـيل بن عبـاس ، وكان كفواً لملك اليمن . وفى واحد وعشرينه خرج من مقابر باب الصغير نجم كبير وجرى جرياً شديداً إلى جهة القبلة ، وله هدير كهدير البعير ، فأجمع الناس على السفر ، وخرجت النساء حاسرات ، واستغاث الصغار ، وكـان الوقت عـجـيـبـا . وفـيـه أمـر نائب قلعة دمـشق بهـدم وإحـراق مـا حـول الخندق من البناء، فحصلت شدة للناس ، وأفحشت النساء فى الدعـاء على النائب ورجـاله . ثم توقف ذلك حـتى يؤمن لهم مـحـلات للسكن . وقـد حصنت القلعة تحصيناً تاماً ، وحمل إليها ما تحتاجه من تموين ، ونُصِبَت المجانيق ..

وفيه كثر القادمون من حلب وحمـاة فعظمت المخاوف ، وانتشرت الأراجيف .

وفى ثامن وعشرينه جاء خبر بوصول السلطان مع عـسـاكـره إلى الريدانيـة فدقّت البـشـائر ، واطمأنت خواطر الناس ، ثم تبين بعد ذلك أن

العساكر المصرية لم تخرج ، وإنما جاء البريد من مصر .

وفيه حصل برد شديد دون أمطار ، ومازال بردى على حاله من النقص وقلة المياه .

تفصيل (٤)

(ركن فى صحن الجامع الأموى. حلقة تضم الشيخ التاذلى، ومحيى الدين بن العز ، وتقى الدين بن مفلح ، وشمس الدين النابلسى وكلهم قضاة مذاهب وعلماء . بعيداً عنهم ، ثمة حلقات أخرى من طوائف القراء والفقراء.)

التاذلى : الأمانة ثقيلة أيها العلماء .. وفى هذه الشدّة علينا أن ننهض رجلا واحداً ، وكلمة واحدة .

ابن النابلسى : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب .

التاذلى : النوايا صافية إن شاء الله .

ابن النابلسى : قولوا إن شاء الله .

الجميع : إن شاء الله .

التاذلى : سيزداد أمر الناس بلبلة وفساداً إن لم نكن رأياً واحداً .

ابن النابلسى : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب .

ابن العز : بعد الخمول الذى أبداه نائب الغيبة، لا نمانع أن يتولى أمير القلعة حفظ المدينة . لكن ينبغى أن يترك لنا تصريف الأمور وإدارة شئون الناس .

ابن النابلسى : أو أن يشاورنا فى كل ما يقرر ، أو يفعل .

التـــــاذلى : قلت لكم هو زاهد فى السلطة ، ولولا إلحاحى ما قبل أن يخرج من قلعته .

ابن النابلسى : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب .

التـــــاذلى : النوايا صافية يا شيخ .

ابن النابلسى : ألن يمد يده إلى الأوقاف ؟

التـــــاذلى : ليس لديه مطمع فى الأوقاف أو سواها . ولكن إذا أردنا التحصين ، ألا ينبغى أن يعطى القائمون على الأوقاف والمقتدرون بعضاً من مالهم ؟

ابن النابلسى : يعطى كل واحد ما يرغب فى عطائه .

ابن العـــــز : لماذا نختلف فى الأمور قبل أوانها ؟

ابن النابلسى : لأنه إذا صفت النوايا اتحدت القلوب .

التـــــاذلى : النوايا صافية إن شاء الله . ونحن مكلفون أيها العلماء . كما أراكم الآن تراعى لى سيد المرسلين ، ويلغنى أمره ، قال عليه صلاة الله وسلامه ، انهضوا وحاموا عن مدينتكم . فهل نخذل نبينا ؟

ابن النابلسى : معاذ الله .

ابن العـــــز : والله ارتعش بدنى حين سمعتك تقص رؤياك .

التـــــاذلى : وأنت يا ابن مفلح . لماذا لا تقول شيئا ؟

ابن مـــفلح : هناك بيوت وأملاك خارج الأسوار فماذا نفعل بها ؟.

ابن النابلسى : من حقك أن تطمئن على أرزاقك .

ابن مـــفلح : أرزاقى وأرزاق الكثيرين من الناس .

التـــــاذلى : يجب أن تُحمى شأنها شأن المدينة .

ابن مـــفلح : لا يضر لو فاتحنا الأمير ، وطلبنا أن يرتب لها الحماية اللازمة .

التـــــاذلى : ولم لا . ! سنفاتحه حين نلتقيه .

ابن النابلسى : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب .

التـــــاذلى : هل بقى فى الخواطر شىء ؟

ابن النابلسى : بقيت مسألة جمال الدين بن الشرائجى .

التـــــاذلى : نعم .. هذا الضالّ (ينادى) هاتوا ابن الشرائجى .

ابن النابلسى : يجب أن نجعله عبرة لأهل الضلالات والأهواء .

التـــــاذلى : لا تسامُحَ مع الذين أزاغ الله قلوبهم .

(يدفع رجلان معمّمان الشيخ جمال الدين بن الشرائجى إلى حلقة العلماء . وأحد المعممين يحمل كيساً من الكتب المخطوطة . يبدأ الناس بالاقتراب محتشدين حول الحلقة .)

التـــــاذلى : أتخلّط فى الدين يا ابن الشرائجى .. أخبرنا ياشمس الدين ما علمت من أمره .

ابن النابلسى : بقى ابن الشرائجى يواظب على دروسى حيناً من الزمن . وكان مجتهداً ومؤدباً لولا ميل إلى الفضول طالما نهيته عنه . ثم أبدى لى الجفوة والجحود . وانقطعت عنى أخباره ، حتى علمت أنه انغمس فى الضلال انغماساً فاحشاً .

جمال الدين : جفوت مجلسك يا شيخ حين عرفت أنك رقيق العلم والدين . تتوه فى المسائل ، وتستحلّ الأوقاف . فكيف يجوز لمثلك أن يرمى الناس بالضلال .

ابن النابلسى : (**يهجم عليه ويصفعه**) أتتهمنى فى دينى وعلمى ياثعبان الكفر والجحود ؟

ابن العز : (**يصفعه بدوره**) وفوق الزندقة صفاقة يابن الفاعلة.

جمال الدين : ما أنت يا ابن العز من يحقّ له التعريض بأمهات الناس .

التاذلى : (**متدخلاً بحدة**) أقصرْ يا ابن الشرائجى ، ولاتزد قضيتك سوءاً .

جمال الدين : وما قضيتى ؟

ابن النابلسى : الكفر والزندقة . أيها العلماء .. أخبرنى شاهد عدل أن هذا الملحد يخوض فى القدر ، ويتعاطى مقالات الكفار والزنادقة .

ابن مـــفلح : القدريَّة مجوس هذه الأمة .

التـــــاذلى : أتخوض فى القدر يا ابن الشرائجى !

جـمـال الدين : ما وهبنا الله العقل إلا لكى نفكر ونتأمل ونعتبر . قال سبحانه وتعالى «فاعْتَبِرُوا يا أُولى الأَبْصَارْ»

التـــــاذلى : ألا تعلم أن الجدل فى الدين فتنة ؟

جـمـال الدين : قال سبحانه وتعالى «أدْعُ إِلى سبيلِ رَبِّك بالحكْمَة والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهمْ بالَتِى هىَ أحْسَن» . وأكمل مراتب الإيمان ما تحصّل بالحكمة .

ابن العـــــز : هذه مقالات الكفار من المتكلمين والفلاسفة .

جـمـال الدين : وهل يكفر المرء إذا عزّز الإيمان بآيات العقل ؟

ابن النابلسى : يا ابن الافعى .. هل تستجرنا إلى الجدل ؟ قل لنا هل تؤمن بالقدر خيرِه وشرِه ؟

(يتلكأ جمال الدين)

التـــــاذلى : أجب .

جـمـال الدين : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إنى مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويعرف أهلى وجيرانى أنى منقطع عن الدنيا وزخرفها إلى العبادة والدراسة .

ابن النابلسى : والقدر ؟.

جمـال الدين : لك ما تشاء يا ابن النابلسى ، إن الله سبحانه وتعالى عادل ، وإنه لا يأمر بالظلم والفساد .. إذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة . ولولا أن الإنسان مخيّر وحر لما قال الله فى كتابه العزيز «فَمالَهمْ لا يُؤْمنُون» ولما قال «ومَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمنُوا باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ» . فلو كان هو الفاعل لأعمالهم ، لما خاطبهم ، ولامهم على ما كان منهم من تقصير ، ولما مدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن .. إنه سبحانه وتعالى يخاطبنا نحن الذين نعقل ونفهم . وإنه يخاطبنا لأننا أحرار . نعم .. هذا هو الدين إننا أحرار ومخيَّرون .

أصـــــوات : (من الحشد) أستغفر الله العظيم .

- شيطان رجيم .

- نعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

التـــــاذلى : ويلك يا ابن الشرائجى .. ضيَّعت نفسك .

ابن النابلسى : تلك مقالته .. (يتناول كتباً من أحد المعممين) وهذه هى ضلالات الشيطان التى يتداولها

التـــــاذلى : (وهو يتناول الكتب) الرد على الجهمية والمجبرة . المغنى فى علوم التوحيد والعدل . فصل المقال . أعوذ بالله . أهذه هى التصانيف التى تنهل منها ضلالك .

ألا تعرف أن هذه الكتب محظورة ؟

جمـال الدين : لا يحظر هذه الكتب إلا الجهل والطغيان .

التـــاذلى : (يضربه) وتتهم علماء الأمة بالجهل والطغيان أيها الفاسق ؟

ابن العـــز : أقيموا عليه حدّ الكافر .

أصـــوات : أقيموا حدّ الكفر .

- استتيبوه

- لعلها جهالة .

جمـال الدين : من كفَّر مسلما فقد كفر .

ابن العـــز : أتعدُّ أهل الاعتزال والفلسفة والبدع بين المسلمين ؟

جمـال الدين : عالم يجتهد خير من عالم يحمل أسفاراً .

ابن مـــفلح : هذه مكابرة الشيطان .

ابن النابلسى : وكأنه يتباهى بالإلحاد .. أهلكك فضولك يا ابن الشرائجى .

جمـال الدين : والله لست مكابراً ولا مباهياً . ولكن الله وهبنى عقلاً فلم أعطِّله .

ابن مـــفلح : قوِّموه بالمقارع والتجريس .

جمـال الدين : المقارع لا تقوِّم إلا العبيد يا ابن مفلح . أما الأحرار فإنهم أقْوم من مقرعتك .

ابن النابلسى : الشيطان يتكلم من فمه .

ابن العـــز : أقيموا عليه حد الكافر .

التـــاذلى : خذوه وأضربوه حتى تكسروا كبرياءه . ثم ارفعوه إلى سجن القلعة ريثما ننظر فى أمره ..

جمـال الدين : (وهم يجرونه) ما أتعس حالنا إذا كان علماء الأمة يسمون الاجتهاد والعلم كفراً .

ابن العـــز : (وهو يصكُّه) إخرس .. قصَّر الله لسانك .

ابن النابلسى : والكتب . ! ألا نحرقها ؟

التـــاذلى : نعم .. احرقوها هنا فى صحن الجامع .

(يوقـدون نارا فى صـحن الجـامع، ويرمـون الكتب فيها)

التـــاذلى : أيها الناس . كيف نتقى غضب الله إذا رقَّ الإيمان ، وتفشَّت مقالات الملحدين .! حين ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول ، سلَّط الله علينا الأعداء . فخرجت الروم إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شىء . وجاءنا المغول من الشرق ، وكادت الأمة تندثر ويفشل ريحها . وحين أقام الناس ما أقاموه من الإسلام وقهرِ الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار

تحقيقاً لقوله تعالى : «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ورَسولِه وتُجاهدونَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكِمْ وأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيدْخِلْكُمْ جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تحْتِها الأَنْهَارُ وَمَساكن طيِّبة فى جنَّاتِ عَدَنٍ ذَلِك الْفَوْزُ الْعَظِيم . وأُخْرَى تحبُّونَها نصْرٌ مِنَ اللَّهِ وفَتْحٌ قَرِيبَ وبشِّرْ الْمُؤمِنين.»

أيها الناس . ونحن اليوم أمام شدة .. وقد تنادينا نحن علماء الأمة ، وأصدرنا فتوى بالجهاد لعدو الله تيمور اللعين .. أيها الناس دعونا نمشى معاً فى أسواق المدينة ، وندعو المسلمين إلى تجارة تنجينا من عذاب أليم .. ليمشِ حاملو المباخر .. وأنتم أيها العلماء.. افتحوا مصاحفكم ، ولنمضِ على بركة الله.

(ينتظم موكب مهيب . تتقدمه المباخر والعلماء ووراءهم حشود الفقراء والقرّاء .. ويخلو صحن الجامع تدريجيا من الناس ..)

العلمـــــاء : **(يرتلون ترتيلاً منغوماً)** «وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِه عَدوَّ اللَّهِ وعَدُوَّكم وآخَرِينَ مِنْ دُونِهم لاتعلمُونَهم اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا

مِنْ شيء فى سَبيلِ اللّهِ يُوفَّ إليكم وأَنْتُم لاتُظْلَمُونْ .

(صحن الجامع خالٍ .. والنار موقدة لاتزال . يدخل شعبان)

شـــعـــبـــان : يمَّه .. يمَّه أريد بزَّك يمه . جوعان يمّه . **(يقترب من النار . يتدفأ . ثم يدور حولها)** أين أنت يمّه. حليب حليب يمّه .

(فجأة يتوقف . يرفع أذيال قمبازه . ثم يبول على النار)

(تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : ودخل ربيع الثانى حاملاً الخير . فقد وقع مطر كـثـيـر جـداً مع رعـد وبرق ، وجـرت منه الميـازيب . وقـد وقع المطر بعـد يومين من الحـادثة التى جـرت مع جـمـال الدين بن الشرائجى ، إذ أحرق القضاة كتبه ، ورفعوه إلى سـجن القلعـة . وقـيل إنه يبطن الإلحـاد والزندقة . نسأل الله العفو .

وفى سادسه خرج السلطان وسائر الأمراء من القـاهرة ، ونزل بالريدانيـة . وتبـعـه الخليـفـة المتوكل والقضاة الأربعة .

وفيه ضرب الجان طباخاً رافضياً بالخلاء حين بال قائماً . ولم ينطق بعدها إلى أن مات بعد أيام . نسأل الله الرحمة .

وفـيـه اتخـذ التـاجـر دُلامـة سـرية ، واخـتلف الناس هل هى جـاريـة أم غـلام ؟ وهذه من النوادر .

وفيه بيع اللحم بسبعة ثم بسبعة ونصف وهذا شىء لم يُعـهَد . والناس فى غـايـة الشـدة ، والسائلون يملئون الطرقات والجوامع .

وفى ثانى عشره جاء الخبر بأن السلطان خرج من الريدانية ومعه العساكر المصرية متوجها إلى دمشق ففرح الناس بذلك .

وفيه ظل جريان الماء فى بردى ضعيفاً .

ولكن بعد المطر خفّت روائحه .

تفصيل (٥)

(فى السوق - محل دلامة التاجر . دلامة وابن مفلح)

ابن مفلح : سجل كيساً ثانيا من الأرز ، وجرّة من الدّبس .

دلامة : هذا احتكار يا شيخ .

ابن مفلح : الوقت صعب يادلامة .

دلامة : نعم.. الوقت صعب والتهور لايسهل الأوقات الصعبة.

ابن مفلح : هل أسرفت فى الشراء ؟

دلامة : ومن يتحدث عن الشراء ؟

ابن مفلح : ماذا تعنى إذن ؟

دلامة : بصراحة .. لايطربنى هذا النفخ فى مزمار الجهاد. هل تظن أن هياج العامة وسيوف الأحداث يمكن أن يوقفا تيمور ؟

ابن مفلح : حاصَرنا الشيخ **التاذلى** ، ولم يترك لنا مجالاً للاعتراض .

دلامة : هذا الشيخ أصابته لوثة . تهيّأ له أن النبى عليه الصلاة والسلام زاره فى المنام ، فتخبّل عقله . كان ينبغى ألا تسايروه . لقد عجبت إذ رأيتك ، وأنت

العالم المتروى، تسير فى ركابه ، وتنفخ فى مزماره.

ابن مفلح : قلت أسايره كيلا تفسد الخواطر ، ويرمى بعضنا البعض بالخذلان .

دلامة : ولكن العوام هاجوا ، والأحداث تسلّحوا . قد نعجز عن ضبط الأمور حين تحين ساعة القرار .

ابن مفلح : دعنا نأمل الخير ، ولا نستبق الحوادث .

دلامة : إذا لم يأت السلطان ، أو إذا .. أنت تفهم قصدى . إن ساعة القرار آتية . أنت تعرف لغة العجم ، ولك من حسبك وعلمك حصانة . لن نجد من هو أليق منك للسفارة وإنقاذ المدينة .

ابن مفلح : من أوحى لك بهذه الفكرة ؟

دلامة : هى فكرتى .. وهى فكرتك أيضاً . ليس ابن مفلح من تدير رأسه المواكب وجعجعة العراضات .

ابن مفلح : اكتم هذه الأفكار ، ولا تطلع أحداً عليها .

دلامة : لن ندع التاذلى يجرنا إلى الخراب ، ولن نكرر غلطة حلب . هذه المحنة لا يمكن تجاوزها إلا بالتدبير والسياسة .

ابن مفلح : اضبط لسانك ، وكل شىء بأوانه .

دلامة : إذن نحن متفقان . كنت أعلم أنك الرجل الذى نحتاجه .

ابن مـــفلح : اللهم قدرنا على ما فيه الخير والصواب .

دلامـــــة : أمين .. يارب العالمين .

ابن مـــفلح : غداً أرسل الخادم والدَّابة لحمل البضاعة .

دلامـــــة : دعه يأتِ قبل الفجر . لا أريد أن تفترسنا العيون.

ابن مـــفلح : هل صرت تبيع بالسر ؟

دلامـــــة : الوقت صعب يا شيخ .

ابن مـــفلح : إن الله لا يحب المحتكرين .

دلامـــــة : ولا النمَّامين .

ابن مـــفلح : غلبتني يا دلامة .

(يخرج ابن مفلح ضاحكا)

دلامـــــة : هذا عالم راجح العقل . إذا ضاقت سيتولى الأمر ، ويعقد لنا الصفقة . ما من عقدة لا تحلها صفقة . شيء من الكياسة والسياسة . هم يبيعونِ ونحن نشتريِ ، ثم نبرم الاتفاق . هؤلاء الحمقى يملئون البلد هرجاً ومرجاً ، لأنهم لا يعرفون كيف يعقدون صفقة . لن نتركهم يجروننا إلى الدمار . فالبلد لنا لا للحمقى والمخرِّفين . نحن نفهم الدنيا ، ونعرف كيف تنشأ الوقائع والحوادث ! هل جرد ذلك التترى الجلف سيفه ، وركب جموعه إلا ليغنم عظمة . وهل يتردد سلطاننا ، ويتخاذل إلا لأنه يخشى أن يخسر العظمة التى يعضّ عليها . وكلاهما يخفى خلف

السيف والدرع تاجراً أخرق . الخصومات ، والفتن والحروب كلها ألوان من التجارة . لكنها تجارة خرقاء ، لايعرف القائمون بها أصول التجارة ، ولا يتحلّون بفضائل التجار . لدىّ أفكار . نعم .. لدى أفكار .

(يدخل الابن بهاء متجهم الأسارير)

دلامـــــــة : **(يباعد المشخص بينه وبين الدور)** وأحس دلامة التاجر الذى عاش فى السنة الثالثة من القرن التاسع الهجرى ، أنه يحلق ، وأن الأفكار تنفجر فى رأسه كالبروق . جاء ابنه ، وأخبره أن مخازنهم المكتومة ضاقت بالبضائع التى أرادوا إخفاءها . وكان فى وجهه تجهم وكدر . وبعد طول تردد قال :

بهـــــــاء : إننا نستغل محنة الناس يا أبى .

دلامـــــــة : لم يغضب دلامة ، ولم ينهره كما تعوّد . بل قال له بحنان ..

(يستعيد المشخص دوره) إسمع يابنى .. أنا تاجر يعرف أصول التجارة ، ويتحلى بمزايا التجار . والتاجر هو الذى يتكيف مع الأوقات ، ويغتنم المناسبات : إن الله سبحانه وتعالى حبَّبنا بالربح

وأغرانا به . تأمل هذه الدنيا ، وقل لى ماذا تكون ، إنها دار تجارة . الإنسان فيها يبيع أعمالاً وعبادة وتقوى ، والله ينقده ثواباً ، ومُقاماً فى الجنة . وبضاعة الإنسان رخيصة ، لكن الله سبحانه وتعالى يغريه ، ويضاعف له الربح أضعافاً لا يحدّها عقل ولا قياس ، التجارة محمودة ، وربحها محمود . ألم يشرّف الله التجارة ويضرب بها الأمثال .. ألم يشبّه حياة الإنسان وعمله بالصفقة ؟ إن التاجر يهتدى برب العالمين ، ويعمل على غراره .. إنه يستخدم الميزان والسجل والحساب والربح والخسارة . التجارة هى صورة الدنيا ، وهى أصل النشاط والاستقرار والعمران .. آه .. يابنى لو كان الملْك للتجار لعمَّ الرخاء والأمان ، وانتظم أمر البلاد انتظام أوقات الصلاة . وحتى لو قامت فتن أو حروب، فستكون فتناً وحروباً مدروسة لا تؤدى إلى الخراب ، بل إلى ازدهار الأعمال والمنافع . لدىّ أفكار . نعم .. لدىّ أفكار (**يعود المشخص إلى أداء المباعدة**) وكان دلامة التاجر الذى عاش فى السنة الثالثة من القرن التاسع الهجرى ، يحس أنه

يطفو فوق فيض دافق من الإلهام . وأنه أنكى من السلطان فرج بن برقوق ، ومن العلج تيمور ، وأن دمشق لن ينقذها إلا صفقة ذكية .

بهـــاء الدين : أين نخبىء ما تبقى ؟

دلامـــــة : هل صرفت الحمالين ؟

بهـــــاء : لا .. إنهم ينتظرون .

دلامـــــة : إذن .. انقلوها إلى البيت ريثما نؤمن مخزنا جديداً.

(فيما يخرج بهاء ، يقترب الحلبى والغلام الذى يرافقه)

دلامـــــة : كيف وجدت الاقامة بيننا أيها الغريب ؟

الحـــلـــبـــى : ليتنى قضيت مع أهلى وولدى ، لاشك أن ذنوبى عظيمة . نجوت من هلاك تيمور لأنوق كل يوم ما هو أمرٌ من الهلاك .

دلامـــــة : شدَّة وتزول أيها الغريب . أهذا الغلام ابنك . ؟

الحـــلـــبـــى : هو .. نعم .. هذا ما تبقى من ولدى .

دلامـــــة : ما أجمله .ا يجب أن تعلِّق له حرزاً يحميه من العيون.

(يتحسس وجه الولد، فيفزع، وينـدس فـى حضن أبيه)

الحـــلـــبـــى : قيل لى إنك عظيم الغنى

دلامـــــــة : لا غنى إلا الله سبحانه وتعالى . والناس تحب المبالغات .

الحـــلـــبـــى : لم أسأل أحداً عن أغنياء البلد إلا ذكر اسمك .

دلامـــــــة : وفيم يهمك هذا الامر ؟

الحـــلـــبـــى : قد تكون ضالتى أيها الكريم . تعبت ، ولم أعد أتحمل خوفى وجوعى .

دلامـــــــة : إذا كنت تطلب .

الحـــلـــبـــى : لا .. لا أطلب صدقة . لحقنى من الخزى ما يكفى . أريد أن أعقد معك تجارة .

دلامـــــــة : تجارة . ! هل تخفى ما يُباع ويشترى ؟

الحـــلـــبـــى : لم أنقذ من أهلى ورزقى إلا جارية ، وهى أحب أولادى إلى قلبى .

دلامـــــــة : وهذا الغلام ؟

الحـــلـــبـــى : استر علينا ، سترك الله .. إنها الجارية . أخفيتها فى ثياب غلام كى أحميها . ولكنى لم أعد أستطيع . أضنانا القلق والجوع .

دلامـــــــة : انها جارية .. ما أعجب هذه القصة .!

الحـــلـــبـــى : استر علينا سترك الله .

دلامـــــــة : اطمئن .. اطمئن . هى جارية إذن ! من حقك أن تخاف عليها .

الحـــلـــبـــى : لا أنام إلا نوم المطلوبين . وأرتعش إذا حدقت فيها العيون . والناس لاترحم ، ولاترتاح إلاّ إذا نبشت ما بدا وما خفى . (**يفص**) وفوق هذا الجوع ، والذل ، وأولاد الحرام .

دلامـــــــة : أعانك الله . ولكن أين التجارة التى ذكرتها .

الحـــلـــبـــى : قلت فى نفسى أيها الكريم . لعل بك حاجة إليها .

(تصوّت البنت أصواتاً غريبة ، وهى تختفى فى حضن أبيها)

الحـــلـــبـــى : منذ رأت ما حل بأمها وأخوتها انعقد لسانها . اهدئى يا ابنتى . هل تريدين أن تُبْكى أباك ؟

دلامـــــــة : أوجعت قلبى أيها الغريب . قل لى بصراحة ماذا تطلب؟

الحـــلـــبـــى : أن تشتريها ، وتسترها .

(يعلو تصـويت البنت ، فـيـريت الأب على رأسها)

دلامـــــــة : هل تعرض علىَّ شراءها ؟

الحـــلـــبـــى : نعم .. أعرض عليك أن تشترى بضعة منى كى

أطمئن . كى يخف حملى .. ويشبع كلانا .

دلامـــــــة : إذن .. تعالَ معى إلى الداخل . هذه صفقة لاتعقد بخفة . ينبغى أن نزن ونقلب .

(يختفى دلامة داخل المحل ، ويتبعه الحلبى الذى يجر ابنته جراً.)

شـــعـــبـــان : **(من خارج المسرح، وبعد اختفاء الجميع ، يتناهى صوته بعيدا)**

أين أنت يمّه . جوعان يمّه .

(يتلاشى الصوت والضوء ..)

مـــؤرخ قـــديم : وفى شـهـر ربيع الثـانى ، فى خـامس عـشـره احـتـشـد فى الجـامع الأمـوى خلق كـثـيـر من جـمـاعـات القراء والفقراء والبطالين . وكـانوا يكبّرون ويهمون بالخروج لكبس الخـمـارات ، وإحراق البيوت التى فيـهـا بنات الخطا . لكن القاضى محيى الدين بن العز ردهم ، ومنعهم من التـشـويش . وقـد حـصل كـلام كـثـيـر ، ثم تفرق الخلق ولم يحدث شىء .

وفى عـشرينه وصل السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى غزة .

وفيه حصل برد شديد وزمتة للغاية .

والماء يجرى فى بردى على زيادة .

تفصيل (٦)

(ديوان فى قلعة دمشق - نائب القلعة عز الدين آزدار ومعاونه شهاب الدين الزردكاش)

شهاب الدين : أخبرت الكشافة أن تيمور وصل إلى بعلبك .

آزدار : ننتظر خبراً من السلطان ، فتأتينا أخبار من تيمور.

شهاب الدين : أيمكن أن يتراجع السلطان بعد خروجه .

آزدار : لا أدرِي .. لا أدرِي شيئاً . هل حصنت السور عند الباب الصغير ؟

شهاب الدين : رجال التاذلى يركبون المكاحل هذه الساعة . صارت المدينة حصينة كالقلعة .

آزدار : إذن دعنا نتفقد الأسوار ، ونرتب المقاتلين .

شهاب الدين : مازال ابن أبى الطيب يلح على لقائك .

آزدار : ولم هذه اللجاجة ! هذا الرجل يحب اللعب بذيله ، ولايحمل لنا إلا العداوة .

شهاب الدين : لا ضير لو منحه الأمير برهة من وقته .

آزدار : هل وعدته ؟

شهاب الدين : لا .. ولكن أتمنى أن تسمع ما لديه .

آزدار : طيب ... دعه يدخل .

(يدخل محمد بن أبى الطيب)

محمد : السلام على الأمير .

آزدار : قل ما لديك ، وأوجز .

محمد : لا بأس أيها الأمير . سأقول ما لدى ، ولن أطيل ، جئت أقدم لك الولاء ، وألتمس منك السلاح .

آزدار : أتطلب السلاح لك ؟

محمد : لى وللرجال من قرابتى .

آزدار : وهل يحق لمثلك أن يطلب السلاح ؟

محمد : يوم سمعت مناديك ..

آزدار : نعم .. نعم . سلّحت الناس ، وأسلّحهم . ولكن ذلك لا يشملك .

محمد : ألست من البلد وناسها ؟

آزدار : لا يسلح المرء أعداءه .

محمد : سامح الله الأمير. أتساوينا بالأعداء؟ فى الملمات ينسى الأهل ما يفرّق بينهم ولايبقى إلا حنين الدم للدم.

آزدار : وأين كان حنين الدم للدم حين جاهرت بعداوتك للسلطان ، وأيدت متآمراً أشعل فتنة ، وأراد أن يغتصب السلطة ؟

محمد : هذا حق . كان لنا رأى ، وكان لنا ولاء .

ولكن تلك أيام سلفت .

آزدار : بل كانت خيانة أفسدت القلوب ، وهزت السلطنةَ .

محمد : ربما أخطأنا فى ولائنا ، ولم نحسن تقدير المصلحة .

آزدار : مازلت تراوغ وتقول ربما . لولا فضل السلطان لالتف حبل المشنقة على عنقك .

محمد : ومن يجحد فضل السلطان ! ومن يجهل أن عفوه هو الذى فك مشنقتى ! ولكن أيها الأمير ، لماذا ننكأ الجراح ، وننبش أسباب الخلاف ، والخطر يدهمنا جميعاً .

آزدار : لولا الشقاق والخلاف ما طمع فينا عدو .

محمد : وها أنا أرجو أن نطوى الماضى ، وتصفو القلوب . إنى أعلن ولائى ، وأطلب شرف الدفاع عن بلدى .

آزدار : وجوابى هو أن تلزم بيتك ، وتترك هذا الأمر عنك .

محمد : ألزم بيتى . وكيف ألزم بيتى أيها الأمير ، إنك تجردنا من المروءة ، وتحكم علينا بالغربة . كيف سيكون شعورنا حين يقاتل الرجال ! ونحن قعود فى بيوتنا مع النساء والأطفال ؟ كيف نتحمل الخزى والمرارة والغربة ؟ لا .. هذه مهانة لا تطاق .

آزدار : إنك تحصد ما زرعت .

محمد : هذه مدينتنا . فيها قبور الأجداد ، وفيها الأهل والعمران ، فمن أجدر منا بالدفاع عنها ؟

آزدار : من يحرص على المدينة لايورطها فى الثورات والفتن.

محمد : ليت الأمير ينسى .

آزدار : الخيانة لاتُنسى .

محمد : هذه المحنة تقتضى أن نجمع ، لا أن نفرق .

آزدار : هذه المحنة تقتضى رجالاً موثوقين لا تشوب ولاءهم شائبة .

محمد : أعطيتك كلمتى أيها الأمير .

آزدار : لن أعرِّض ظهرى لتقلبات الأهواء والأفئدة .

محمد : أهذا قرارك الأخير ؟

آزدار : نعم .. ولافائدة من الجدل .

محمد : فى الوقت الصعب .. وحين يعزّ الرجال ، لا تنسَ أيها الأمير أنك أبعدت رجالا لاتنقصهم الحميّة ولا الشجاعة .

آزدار : لا أريد نجدة الخونة والمتآمرين .

محمد : والله إن رجالا فيهم حمية ورأى خير لك من العبيد.

آزدار : لاتتجاوز حدك ، واخرج قبل أن أغضب .

محمد : لا بأس أيها الأمير .

(يتراجع منسحباً)

آزدار : الزموا بيوتكم واحذروا ، فلن أكون رحيماً لو بدر منكم شغب .

محمد : سمعاً وطاعة أيها الأمير .

(يخرج .. يبدو آزدار مهتاجاً . يلتفت إلى شهاب الدين)

آزدار : وأنت ماذا تريد أن تقول ؟

شهاب الدين : لا شيء .

آزدار : هل توقعت أن ألبى طلبه ؟

شهاب الدين : لا أدرى . أمامنا معركة صعبة .. ربما كان أفضل لو ألّفنا قلوب الجميع وشجعنا مبادراتهم .

آزدار : هؤلاء أفسدت قلوبهم الدسائس ولاخير فيهم .. لقد نشأت وتربيت على الولاء والواجب . وخلال حياتى التى قاربت الآن على نهايتها ، رأيت كثيراً ، وتقلّب الحظ بى مراراً . ومع هذا ظلت هاتان القيمتان كإيمانى بدينى لا تعدو عليهما قيمة أخرى .. ما الذى وصل بنا إلى هنا .. إنه جشع الأمراء ، وتقلب ولاؤهم. ولولا هذا الوضع لبادرنا تيمور قبل أن يعبر الفرات بدلاً من انتظاره كالنساء فى قلاعنا ومدننا.

لا ياشهاب الدين القلوب الفاسدة إذا وجدت عند العدو مصلحة تحوّلت علينا ، ولا أستطيع أن أخاطر بتسليحهم والاعتماد عليهم .

(يدخل الشيخ التاذلى وهو يحمل صندوقاً معدنياً)

التـــــاذلى : أبشر أيها الأمير ..

آزدار : أهلا بالشيخ .

التـــــاذلى : جاء بريدىٌ يخبر أن السلطان وعساكره وصلوا غزة.

آزدار : إذن سيكونون بيننا خلال أيام . هل حُصِّنَ السور قرب الباب الصغير ؟

التـــــاذلى : إن رجالى يركّبون المكاحل هذه الساعة .

آزدار : سنقدم للسلطان مدينة كالحصن المنيع .

التـــــاذلى : تعبنا ونلنا أيها الأمير .

آزدار : لا فضل لمن يؤدى واجبه .

التـــــاذلى : ما أحلى تواضعك أيها الأمير ! فى هذا الزمن المشوش أداء الواجب مأثرة عظيمة . والآن لدىّ هاجس شخصى أريدك أن تريحنى منه . لا أحد يعلم كيف تدور الأحداث . لدى امرأة وابنة، وفى هذا الصندوق وفر عمرى كله ، سأودع الصندوق لديك

وإذا ما كتب الله لى الشهادة ، فإنى أرجو أن تصون امرأتى وابنتى كما تصون أهلك .

آزدار : هذه بسيطة . ولكن هل نعرف من يسبق الآخر ياشيخ؟

التـــــــاذلى : لم يتبدّ لى حبيب الله عبثاً . كان الضوء يومىء لى وهو يتناءى ، وإذا قدر الله سأتبع الإيماء ، وأعبر الضفة ، وألتقى سيد الأنام .

آزدار : خير يا شيخ .. إن شاء الله خير .. خذ الصندوق ياشهاب الدين .

(يتلاشى الضوء)

تفصيل (٧)

(فى بيت دلامة التاجر . الضوء شاحب . دلامة يختم صلاته وينهض . فى الغرفة منقلَ مليءٍ بالجمر . حين ينهض دلامة تتراجع ابنة الحلبى على عجيزتها ، وعلى وجهها علامات الخوف والاضطراب)

دلامـــــــة : وهل ينفعك الزحف وهذا الصدّ . تعالى (تتراجع الفتاة أكثر) إن الطقس بارد فاقتربى من النار .. تعالى ياريحانة . إنه ليس اسمك . ماذا أفعل ؟ نسيت أن أسأل أباك عن اسمك ..شغلتنا المقايضة ، فلم يخطر لى أن أسأله عن اسمك . لكن ماذا يهم! سميتك ريحانة، وإنه اسم جميل يناسبك . اسم على مسمى .. **(كلما اقترب منها تراجعت وازدادت تجمّعاً على نفسها)** اسمعى ياريحانة .. لقد صبرت عليك أياماً عدة .. قولى ألم أصبر عليك ؟ وأنت لى .. أنت ملكى . لقد دفعت ثمانى ذهبيات رنانة . وضعتها الواحدة بعد الأخرى فى يد أبيك . لم أحظ عليك بالرخيص . وأبوك لم يفرط بك

بالرخيص . كلانا عرف كيف يقدرك ، وكلانا عرف كيف يسعِّرك. لا تستوحشى منى.. سأدلّلك، وسأرضيك (يحضنها، فتصدر أصواتاً غريبة ومروّعة. يفلتها بغضب) لا .. إنك تستغلين صبرى ولطفى .. هل اشتريتك كى اتفرج عليك ، وأسمع صراخك الأبله . ! لا أريد أن أكون قاسياً ياريحانة ، ولكن سايرينى قليلا .. فى النهاية ما من بنت تبقى فى بيت أبيها . إذا أبديت لطفاً فسأعوض عليك الحزن والغربة . (يتحسس فخذيها) أتعلمين حين ألمسك أشعر أن قواى تتجدد. أبرمت صفقة رابحة، ولن أدعك تفسدينها . إن الأرض باردة . تعالى معى إلى السرير (يحاول أن يحملها فتولول تلك الولولة الخرساء والمخيفة) إخرسى .. يقشعر بدنى من هذا العواء .. أنت أردتِ ذلك . لم ينفع الصبر، ولم تنفع الكلمة الحلوة ، والذهب الذى دفعته لم يَغلَّ علىَّ شيئاً حتى الآن . أجل .. أريد أرباحى .. وهذه الليلة بالذات . (يتناول من درج فى خزانة الحائط حبلاً ويأتى إليها . بعد تصويت ومقاومة شديدة يفلح فى ربط يديها وتقييد ساقيها على قائمتى السرير . بعد أن

ينجح فى تقييدها ، يفرك يديه وهو يلهث ، تبدو الفتاة مغلوبة على أمرها ، عيناها جاحظتان وفمها يتقلص بعنف وكأنها تريد أن تفهر بكمها وتتكلم)

دلامـــــــة : (تنفر الشهوة من عينيه ، وهو يفرك يديه) الآن سأجنى أرباحى . وأقطف ثمارك الشهية (يبدأ فى تلمس جسدها بشبق) التفاح .. والرمان .. وحلاوة الشهد (ينبطح فوقها ومازالت تبذل جهداً خارقاً لكى تتكلم)

الفـــتـــاة : ات .. ات ... ات .. ار .. ات ... ار ... تات .. (وفى صيحة قوية) ترى .. ت .. ت .. رى (تتضح الحروف أكثر فأكثر ، ثم تشكل هذه الكلمة التى ترددها بصوت أقوى فأقوى) ترى .. ترى ... ترى .

دلامـــــــة : (غارقاً فى شهوته) سبحان من أنطقك .!

الفـــتـــاة : ترى .. ترى .

(ويتلاشى الضوء)

مـــؤرخ قـــديم : وفى عشرينه ربيع الثانى توجه الفقراء إلى زقاق الدبّاغة ، وكبسوا مكاناً تُعمل فيه الخمور فأراقوها وأمسكوا من يعملها .

وفى خـــمس وعـــشـــرينه وصل أهل بعلبك والزبدانى وأخبروا بوصول تيمور إلى بعلبك .

وجاء نائب حمص هاربا إلى دمشق فجفل الناس وساء حالهم .

ودخل جمادى الأولى ودمشق مغطاة بالثلج . بدأ هطول الثلج بعـد منتـصف الليل بقليل واستمر حتى الضحى.

وفى الثانى منه وصلت طلائع جيش السلطان.

وفى السادس منه كان دخول السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى دمشق. وكان لدخوله يوم مـهـول من كـثـرة صـراخ الناس ويكائهم والابتـهـال إلى الله بنصرته . وكـان دخـول الجيش مهيباً لولا كثرة الوحول التى لطّخت الفرسان والمشاة.

وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه . وبدأ يقوى جريان الماء فى بردى .

تفصيل (٨)

(غرفة الضيوف فى بيت الشيخ برهان الدين التاذلى . فى الغرفة ابن خلدون وتلميذه شرف الدين)

ابـن خـلـدون : ما حالك ؟ هل تبكى ؟

شـــرف الدين : أشعر أنى مبلبل الفؤاد . إنها المرة الأولى التى أرى فيها الثلج ، سبحان الله ما أعجب منظره ! ثم دخول العسكر . وحماسة الناس ، وكرم الشيخ التاذلى . كل ذلك يبلبل فؤادى . لاتظن أنى متعب بل إنى متلهف كى نبدأ العمل .

ابـن خـلـدون : هذا البلبال طبيعى فى سنك وحداثتك . ولكن حين تريد أن تسجل الوقائع ينبغى أن تسيطر على الانفعالات والعواطف . أو أن تلغيها تماماً .

شـــرف الدين : وهل يستطيع المرء أن يفعل ؟

ابـن خـلـدون : ينبغى أن يستطيع ، لكيلا يجرفه الهوى ، ويزوِّر الوقائع . والآن ، دعنا ، نعمل . قليلاً .

(يهـــيىء شـــرف الدين القـــرطاس والدواة والريشة، ويتربع على الأرض أمام منضدة

صغيرة ، ويتهيأ للكتابة)

ابن خلدون : (يملى عليه) لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم

شرف الدين : الأمير تمر يا سيدى ؟

ابن خلدون : نعم الأمير تمر .

شرف الدين : إنك تجلّه ياسيدى . ألا تصفه بالكافر أو اللعين ؟

ابن خلدون : (بحدة) لا .. لن أصفه بالكافر أو اللعين . إننا لانكتب إنشاء وهجاء ، بل نكتب تاريخاً يا شرف ، وكتابة التاريخ كما قلت لك منذ لحظة لاتستقيم مع الأهواء والتحيّزات . والتاريخ نفسه لايبالى بالشتائم والمفردات الأخلاقية الشائعة .

شرف الدين : عفوك ياسيدى .. هذا درس لن أنساه .

ابن خلدون : لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وضرب سيواس ورجع إلى الشام . جمع السلطان فرج عساكره ، وفتح ديوان العطاء ، ونادى فى الجند بالرحيل إلى الشام ، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة .

(طرق على الباب . يهبُّ شرف الدين لكى يفتح الباب)

شـــرف الدين : من؟

ســـــعـــــاد : جئت كى أهيىء لسيدى تغطيسة الماء الساخن .

(يفتح شرف الدين الباب ، فتدخل سعاد وهى ابنة التاذلى الوحيدة . ترافقها خادمة تحمل طشتاً وإبريقا ومناشف)

ابـن خـلـدون : يا ابنتى لا أحتاج شيئا .

ســـــعـــــاد : لا شيء يداوى مشاق السفر ، والبرد مثل تغطيسة الماء الساخن .

ابـن خـلـدون : غمرتمونا بفضل لا يوفّى .

ســـــعـــــاد : نزولك عندنا هو الشرف والفضل الذى لا يُوفَّى . هلا خلعت نعليك ياسيدى ؟

ابـن خـلـدون : إذا كان لابد .. دعى الطشت والماء ، ونحن نتدبر الأمر .

ســـــعـــــاد : أوصانى أبى أن أدلك قدميك بيدى . مثلك ياسيدى لا يخدمه الخدم ، بل رب البيت.

ابـن خـلـدون : قدرنى الله على مجازاة المعروف بمثله .

ســـــعـــــاد : أرخِ قدميك ياسيدى .

(شـرف الدين الذى يبـدو مـرتبكاً منذ دخـول سعاد، يحاول أن يخرج من الغرفة)

سـعـاد : لا تخرج أيها الشاب .

ابن خلدون : إنه تلميذى ورفيقى شرف الدين .

سـعـاد : لا تخرج يا شرف الدين . لقد ربّانى أبى ، وأحسن تربيتى . الحشمة عندنا أصلب من أن يخدشها النظر أو الحديث .

ابن خلدون : لله درّك يا ابنتى . ! والله إنك لتليقين بأبيك .

سـعـاد : صبِّى الماء ياطيرة . هل هو شديد السخونة ؟

ابن خلدون : لا .. إنه مناسب .

سـعـاد : تتمنى أمى ياسيدى لو تسعفها على أبى . إنه يكلف نفسه فى هذه المحنة فوق ما يحتمل بدنه أو سنه . ها أنت ترى . لا يبيت ليلة قبل أن يطلع إلى الأسوار، ويتفقد المقاتلين ، أما فى النهار فإننا لا نكاد نراه . إنه يجور على نفسه وكأنه شاب فى العشرين .

ابن خلدون : والله لاحظت أنه لا يترفق بنفسه .

سـعـاد : منذ بدأ هذا الأمر وهو فاتر المزاج . لا يهنأ بطعام أو رقاد . إياك أن تظن أننا نريد أن نقعده عن الجهاد . لا .. الجهاد حق وواجب . ما نأمله هو أن تخفف من اندفاعه بما يحمى صحته .

ابـن خـلـدون : سأحاول بإذن الله .

سـعـاد : ألن تكفينا العساكر السلطانية شر تيمور ؟

ابـن خـلـدون : هذا ما نرجوه جميعاً .

سـعـاد : كم كان الناس فى انتظار قدوم السلطان . ! الأخبار تتضارب ، والأراجيف تنتشر ، والخلق فى بلبلة عظيمة . لولا رجال مثل أبى ونائب القلعة. لخلت دمشق من أهلها .

ابـن خـلـدون : أخبرنى أبوك طرفاً مما قاسته المدينة .

سـعـاد : كاد اليأس أن يهلك الناس . ولهذا انفجرت المشاعر مجنونة يوم دخول السلطان . ألم يتردد طويلاً قبل أن يعزم على المجىء !

ابـن خـلـدون : للسلاطين ظروف ومواقيت هم أدرى بها منا .

سـعـاد : نسأل الله أن يحمينا ، وأن يكشف عنا هذه الغمة . ما كان يليق أن نشغلك بهمومنا ، ولكن أمى قلقة.

ابـن خـلـدون : طمئنيها . سأبذل معه غاية جهدى .

سـعـاد : بارك الله فيك .. هل تحتاج شيئا آخر ياسيدى ؟

ابـن خـلـدون : قوّاك الله وعافاك يا ابنتى .

(تخرج سعاد ومعها الخادمة)

ابـن خـلـدون : هذه الفتاة مكرمة لأبيها . لا يضاهى جميل قولها إلا رشاقة يديها .أراحتنى هذه التغطيسة كأنها البلسم.

شـرف الدين : أدام الله عليك الراحة والعافية .

ابـن خـلـدون : هل أنت محموم ؟

شـــرف الدين : (محرجاً من لمسات ابن خلدون) لا .. لا شيء . ما سمعته عن حمية أبيها زاد هياجي . فى مثل سنه يتقلد عدة القتال ، ويقف على الأسوار . !

ابـن خـلـدون : والله إنه منغمس فـى أمـر تيمـور انغمـاس رجـل فيه لوثة.

شـــرف الدين : هل تلومه ياسيدى ؟

ابـن خـلـدون : بل أشاطر أهله الإشفاق عليه . وأخشى أن أحداً لن يستطيع أن يثنيه عما يفعل .

شـــرف الدين : وجود أمثاله يؤكد الثقة بالنصر .

ابـن خـلـدون : النصر . !

شـــرف الدين : أتتنبأ لنا بالخسران يا سيدى ؟

ابـن خـلـدون : لا أتنبأ بشيء ما جئنا لنتنبأ ، بل لنعاين ونسجل .. أين وصلنا ؟

شـــرف الدين : وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة .

ابـن خـلـدون : فاستدعانى الحاجب ، وأرادنى على السفر معه فى ركاب السلطان ، فتجافيت عن ذلك ، ثم أظهر العزم علىَّ بلين القول . وجزيل الإنعام ، فأصخيت ، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ٨٠٣ هجرية .

(يتلاشى الضوء)

تفصيل (٩)

(الوقت ليل .. فى مكان ما على الأسوار .. أحمد ومروان)

أحـــمـــد : أين هم ؟ لماذا يختبئون ! إن دمى يغلى . عاهدت نفسى أن أذبح أول تترى ألتقيه ، وأن أسلخ جلده كما تسلخ الدابة .. هل أنت بردان ؟ لماذا لا تتكلم .! من كان يصدق أنك ستتقن استعمال الحربة بهذه السرعة . **(يتناول من جيب داخلى زجاجة ، ويتناول منها جرعة ، ثم يمدها إلى مروان)** طاوعنى وخذ جرعة . إنها أفضل ما يداوى البرد .

مـــروان : لا أريد .. هذا حرام وطيش .

أحـــمـــد : ما أشد تزمتك . ! كيف تعيش معك أختى . ! إن رخصة الجندى واسعة ، وكل شىء مباح إلا الجبن والخيانة .. وأنا مقاتل . وسأصبح ذات يوم مقدماً ، أقود الكتائب من معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر . تخيل بهجة الفاتح حين يدخل مدينة مستسلمة وراكعة . ومصيرها تحدده كلمة واحدة منك . هذا السيف هو أنبل ما صنعه الإنسان . ومهنته هى أرفع المهن . حين تدور المعركة سيبرز

معدنى ، وسأجعل نجمى يسطع . وأنت أيضا يمكن أن يكون لك نصيب من المجد . لا أخفى عنك .. لقد أدهشتنى . لم أتخيل أبداً ، أن يد الحريرى الرخوة والناعمة يمكن أن تطوع الحربة بهذه البراعة ! أنت أيضا ستكون لك حصة من المجد .

مـــــــروان : خذ حصتى ، فأنا لا أبحث عن المجد . وأعتقد أنى لن أبق على الأسوار هذه الليلة .

أحـــــمـــــد : هل تريد أن تهرب إلى بيتك . ! هل تترك الرجال لتختبىء فى حضن زوجتك ؟

مـــــــروان : اسمع .. لاتجعلنا نتحامق . اليوم روحى ضيقة ولا أتحمل لسانك الفلتان ، وتشدقك بالفارغ والمليان .

أحـــــمـــــد : ماذا تقول . ! أأنت تقول لى ذلك . ! لولا أنك .. لجعلتك غربالاً (**يحتسى جرعة من الزجاجة**) ماذا دهاك ؟ لماذا اللف والدوران؟ قل إنك بردان وخائف. وسنتدبر الأمر . أما أن تهينتى ..

مـــــــروان : اخزِ الشيطان يا أحمد .. لم أقصد إهانتك، ولكن روحى ضيقة . لم أعد أعرف موقعى . لم أعد أعرف كيف تدور الأحوال ، أو ماذا ينبغى أن أفعل . !

(**يدخل الشيخ التاذلى ومعه مقاتل شاب**)

التـــــاذلى : حيّا الله الشباب .

أحـــمـــد : (باندفاع وارتباك) حيّاكم الله ياشيخى .

التـــــاذلى : كيف الحال عندكم ؟ ألا يرهقكم البرد ؟

أحـــمـــد : من يبالى بالبرد . ! إننا على أتم حال ياشيخ ، ولكن لماذا لا يظهرون ؟ لماذا لا يخرجون من مخابئهم؟

التـــــاذلى : لا تكن عجولاً .. سيظهرون ، وستكون لنا معهم مطاولة رهيبة .

مـــــروان : هناك شيء يثقل على صدرى ياسيدى .

التـــــاذلى : قل ما لديك .

مـــــروان : إنى حائر يا سيدى .. لقد بكينا فرحاً يوم وصلت العساكر السلطانية ، وحسبنا أننا صرنا فى أمان ، ولكن رغم ترحيبنا وكرمنا .. أقسم لك يا سيدى إن الجميع فى السوق يعاملونهم كالضيوف، ويراعونهم كما تُراعى العين الرمداء . إن أحدا لا يريد أن يربح منهم ، بل ولا يبخل عليهم بهدية . ولكنهم يتصرفون مع المدينة وكأنها مباحة لهم ، يستطيعون أن يأخذوا، ويغتصبوا ما يشاءون . إنى حائك على قدٍّ حالى ، واليوم دخل علىَّ ثلاثة عساكر ، لو ترى كيف رحبت بهم ، وأردت أن أعانقهم، إنهم عساكرنا التى جاءت لتحمينا، فكيف لا أرحب بهم؟. سألونى عن

أثواب الحرير وما لدىّ ، فأسرعت أفرش أمامهم شيئاً مما لدىّ ، ويشهد الله أنى لم أكن أنوى أن أضيف على سعر الكلفة أى ربح ، فهل تدرى ماذا فعلوا ياشيخ . ! حملوا القماش وهمّوا بالخروج. سألتهم بكل لطف عن الثمن . فسلّوا سيوفهم فى وجهى ، وخرجوا ، وهم يتضاحكون . ومثل هذا تكرر مع سواى ، وفى كل الأسواق . قل لى ياشيخ .. هل جاءوا ليحمونا أم لينهبونا !

التـــــاذلى : فى كل عسكر يوجد بعض الأوباش . لاتدع خسارة صغيرة تضعف روحك . نحن أمام معركة مصيرية ولا وقت للحسابات الصغيرة.

أحـــمـــد : (يلكز مروان) ما نحن فيه أهم من قطعة قماش يامروان .

مـــــروان : سأختنق إذا لم أتكلم . رموا علينا ضريبة لطعامهم وعلف دوابهم ، ولم نتذمر . وسنسامح ياشيخ بالتجاوزات، وما يأخذونه عنوة . ولكن مقابل ذلك ألا ينبغى أن يعفونا من مشقة القتال وحماية الأسوار !

التـــــاذلى : (محتداً) أتريد أن يقاتلوا عنا ، ونحن جلوس فى بيوتنا كالنسوان . ! لا .. نحن أمام خطر جسيم ،

ولن نفلح إلا إذا قاتلنا جميعاً بقلب واحد ، وسيف واحد . لا .. ليس هذا وقت الشك والوسواس . إن المعركة ستبدأ بين ساعة وأخرى . هل تدركون أيها الشباب .. بين ساعة وأخرى سيتقرر مصير أهلنا ومدينتنا ومستقبل أيامنا . قولوا لى .. كيف يمكن أن نفلح إذا بدأنا المعركة وفى قلوبنا زيغ . ! كيف نفلح إذا قاتلنا ، وكلٌ يحمل فى نفسه ضغينة أو وسواساً . لا .. ليس هذا وقت الحزازات والحسابات الصغيرة، اليوم ينبغى أن نعلو على الصغائر ، وأن نؤجج فى قلوبنا العزم والجسارة .

أحمد : لا ياسيدى .. لا تخشَ شيئاً . سنكون كما تشاء فى العزم والجسارة . ومروان لايعنى شيئاً .. كانت فشّة خلق لا أكثر .

التـــــاذلـى : هذا ما أتوقعه منكم . والليلة بالذات ينبغى أن تكونوا فى غاية الحذر . يخامرنى إحساس بأن تيمور قد يباغت الأسوار كى يربك عساكرنا ، ويلتف عليها . كونوا يقظين هذه الليلة ، ولاتنسوا أن الحبيب المصطفى يساهركم. ويحنو عليكم . قولوا .. من يستطيع أن يغمض عينيه والحبيب المصطفى يساهره!

أحـــمـــد : باطـل ياسـيدى . لـن يـرف لنا جفـن، ولن تغمض لنا عين .

التـــاذلى : بارك الله فيكم أيها الشباب .

(يتـركـهم التـاذلى ويمضى فى جـولتـه على الأسوار)

أحـــمـــد : أكان ضرورياً أن تضعنا فى هذا الموقف . ! أقمت الدنيا وأقعدتها من أجل خرقة من القماش .

مـــروان : أتسميها خرقة .. ! ولكن ماذا تعرف عن عملى ؟ إنى أضع روحى فى كل منديل ، أو قطعة كمخة أنسجها . قل لى لماذا تعلمت ضرب الرمح على كره منى ! أو لماذا أقف الآن على هذه الأسوار . ! ألم أفعل ذلك لحماية عملى ورزقى !

أحـــمـــد : **(وهو يتناول جرعة من الزجاجة)** أهذا كل ما تفكر فيه ، نسيجك ومالك . اللعنة على المال وعلى الرزق . إننا هنا من أجل الكرامة . من أجل العزة. إننا هنا يامروان من أجل البطولة . آه .. حين يكون المرء بطلاً ، يتهاوى أمامه الأعداء ، وتتساقط المدن **(يتركه مروان ويمشى)** أين تمضى ؟ توقف .. جاوبنى .. ماذا دهاك ؟

مـــــــروان : إنى ذاهب إلى البيت .

أحـــــمـــــد : إلى البيت . ! وبعد كل ما قاله شيخنا التاذلى ! إنك تجعل نفسك مضغة للأفواه .

مـــــــروان : لا أبالى ولم أعد أتحمل .

أحـــــمـــــد : جبان .

مـــــــروان : قل ما تشاء .

أحـــــمـــــد : إنك عار على العائلة . إنك عار علينا وعلى أختى.

مـــــــروان : العائلة صغيرة ويكفيها مجد واحد .

أحـــــمـــــد : إنك تقطع ما بيننا إذا ذهبت .

مـــــــروان : قد تغير رأيك حين تصحو .

أحـــــمـــــد : (شديد الغضب) أتحسبنى سكرانا .!

مـــــــروان : (وهو يغادر) لست أدرى .

أحـــــمـــــد : (وهو يكرع من الزجاجة كرعات متلاحقة) جبان .. أحمق .. حرمة .. نعم أنت كل هذا ، وسيكون بيننا حساب .

(تتلاشى الاضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفى العاشر من جمادى الأولى ، حصلت وقعة بين القـوات السلطانيـة ومـعـهـا عـرب بنى الغزاوى، وبين قوات تيمور لنك، واستطاعت العساكر السلطانية أن تهزم جند تيمور . وقد أسـروا منهم ونهـبـوا وهرب الأمـراء حـاملين جراحهم .

وفى ثانى عشره ، نودى بدمشق بأن من كان له على الأجناد والمستخبرين دين فلا يطالب به . وذهب للناس فى ذلك مال كثير : ووقف حالهم زيادة على ما هم فيه .

وفى خامس عشره ، اشتدّ البرد والزمتة وهطل ثلج خـفـيف مع مطر ، وهذه ثانى مـرة تثلج فيها خلال جمادى الأولى .

والماء يعلو فى بردى ويجرى على قوة .

تفصيل (١٠)

(بيت جمال الدين الشرائجى . ياسمين زوجة جـمـــال الدين وإبراهيم الملكاوى . الضـــوء شاحب)

ياســـــــمين : لا أصدق عينى . كيف تذكرتنا بعد هذا الغياب الطويل!

إبـــراهـــيـــم : علمت أمراً يجب أن أخبرك به .

ياســـــــمين : إذن جئت رسولاً لا زائراً .

إبـــراهـــيـــم : **(متلصصاً وحرجاً)** علمت أن الشيخ جمال الدين أرسل من سجنه تظلّماً إلى السلطان ، وأن العلماء أوغروا صدره ، فرد التظلم ، وأمر بتشديد العقوبة .

ياســـــــمين : ولماذا تبدى كل هذا الحزن .! أليس هذا ما أراده لنفسه . ! ما اقساك يا إبراهيم الملكاوى . ! مر شهر وأنا أنتظر زيارة أو حتى إشارة . ماذا حدث ؟ ما سبب هذا الجفاء ، ولماذا تريد تعذيبى ؟

إبـــراهـــيـــم : بل أريد تعذيب نفسى لا تعذيبك ياأم واصل ! يشق علىَّ الحديث فى هذا الموضوع .

ياســـــــمين : هل كان الهوى لعبا . وهل كان البوح والتودد كذباً ؟

إبـــراهـــيـــم : لا .. لم ألعب ولم أكذب . ولكنى كرهت نفسى. ومازلت أكرهها . أعمانى الهوى فجعلنى أخون الصديق والمعلم والعشرة . أتعلمين .. أنا الذى وشى بالشيخ جمال الدين ، وأنا الذى حرض ابن النابلسى عليه . حين رأيته ذلك الصباح فى صحن الجامع الأموى ، رافع الرأس لا يتراجع ، ولا يلين ، استصغرت شأنى و كرهت نفسى ، وقررت أن أخفى وجهى عن الناس .

يـاســـــمـين : أ أنت من وشى به ؟

إبـــراهـــيـــم : نعم .. أنا الواشى الجبان . لقد فقدت احترامى لنفسى . وكنت أعلم أنك لن تقبلى صغارى ، ولن تستطيعى الامتناع عن احتقارى حين تعلمين إلى أى درك هويت .

يـاســـــمـين : أحقاً كان الهوى دافعك .!

إبـــراهـــيـــم : نعم .. هوى جامح . أعمى بصيرتى وأضل روحى . كانت زلة فاحشة . وددت لو أخرج قلبى من صدرى وأذبحه . قررت أن أخنق هواى . وأدفنه ولم أكن أجرؤ على الاقتراب منك ، كنت أخشى نفسى ، وكنت أخشى احتقارك أيضاً .

ياســـــمين : ولم الاحتقار . ! وكيف أستطيع أن أحتقر شريكى فى الوشاية !

إبـــراهـــيـــم : أ أنت أيضا ؟ لا .. لاتقولى إنك ..

ياســـــمين : لا .. لم أفعل شيئاً ولكن .. ألم يكن هوانا هو الذى فعل . ! ألم أرغب أن يغيب ، وأن نكون معا بلا حواجز . ! إنى شريكتك يا إبراهيم ، ولا أستطيع أن أحتقرك أبداً . من يحب لا يعرف الاحتقار أبداً .

إبـــراهـــيـــم : هذا كرم عظيم يا أم واصل ، ولكن يبقى أمرى مع نفسى ، وسيمر وقت طويل قبل أن أتطهر من خيانتى ، الآن .. وأنا أقف هنا فى بيته أشعر بالخزى . أشعر أنه كبير ، وأننى حشرة صغيرة فى طين الغدر والأهواء .

ياســـــمين : ولمَ المداورة ؟ لماذا لا تقول بصراحة، ما عدت أحبك؟

إبـــراهـــيـــم : ليتنى استطعت أن أدفن هذا الحب فى صدرى ! وأقول لك إنى أتعذب أكثر مما تظنين . لن أسترد احترامى لنفسى إلا إذا قهرت هذا الهوى ، وغسلت تلك الدناءة . كم مرة فكرت أن أثير فضيحة فى الجامع، لكى يرسلونى إلى السجن مثله ، فأعترف له وأطلب غفرانه .

ياســـــمين : إنى لا أفهم .. كل هذه الوساوس من أجل زلة صغيرة يرتكبها أى عاشق ! إننا لم نرتكب جريمة . وكان العلماء سيكشفون أمره عاجلاً أم آجلاً . أنت تعرف أنه لم يكن متحفظاً أو حريصاً فى أقواله وأفكاره . كان يبدو وكأنه يريد المعركة ويستعجلها . إنك تؤذى نفسك بلا مبرر . ليتك فكرت فى أمرى كما فكرت فيه ! لم يخطر لك أن تسأل عن حالى ، وما يجرى لى خلال هجرك وبعدك .

إبـــراهـــيـــم : ألا تريدين أن تفهمينى ! لقد تحطم شىء فى داخلى. أشعر أنى ملوث . أنى صغير . وأفضّل ألف مرة أن يتحول حبى إلى جرح متقيح فى صدرى ، على أن أستمرىء ضعتى واحتقارى لنفسى .

ياســـــمين : إنى بحاجة إليك .. خلال شهر وأنا أقلب المشاريع فى رأسى . تخيلت أنى أحصل على الطلاق ، وتخيلت أنى أزفّ لك .

إبـــراهـــيـــم : أرجوكِ .. أرجوكِ ..

ياســـــمين : ألم يكن هذا ما نحلم به . ! ألم يكن هذا ما يطوف فى خيالنا ، ونحن نتبادل النظرات واللواعج والكلمات المخطوفة !

إبـــراهـــيـــم : رؤيته ذلك الصباح حطمت كيانى . إنى لا أستحق ما كان له . إنى لا أستطيع .

يـاســـــمين : لم أكن أحبه، أبى أجبرنى . وهو لم يكن يبالى بى . أنت لا تأخذ ما يملكه .

إبـــراهـــيـــم : مهما قلت فأنا لا أستطيع . إنه هنا .. إنه بيننا الآن. وسيظل بيننا كلما نظرت إليك . كلما اقتربت منك . كلما لمستك .. سأجده كالشبح بيننا .

يـاســـــمين : ولكن هل هو سحر ؟ هل هو عفريت ؟ إنك تتصرف مثل طفل . إنى بحاجة إليك يا إبراهيم .

إبـــراهـــيـــم : كل ما لدى هو لك . سأكون خادماً لك فى كل ما تطلبين. ولكن.. لن يكون شىء بيننا ، قبل أن أتطهر، وأسترد احترامى لنفسى .

يـاســـــمين : أهذه خاتمة الحكاية ؟

إبـــراهـــيـــم : لو تعلمين كم أنزف !

يـاســـــمين : وأنا .. تظن أنى لا أنزف !

إبـــراهـــيـــم : أقول لك الحق ، أقول لك كلمة من القلب قبل أن أنصرف .. لايستحق رجل مثلى أن تنزفى عليه . نحن الآن فى محنة ، ولو احتجت أى شىء . فإياك أن تترددى فى طلبى .

ياســـــــمين : وهل بقيت لى حاجة . ! أتستعجل الذهاب . ! إذهب إذن ..

(يخـرج إبراهيـم مـرتبـكاً تتـداعى ياسـمين على الأرض والدمـوع تتسـاقط مـن عينيـها ، تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفى ثمـانى عشره من جمـادى الأولى جـاءت طلائع تيمور لنك من تحت جبل الثلج ، وكانوا نحو ألف فارس فبرزت إليهم طلائع العساكر السلطانية نحواً من مائة فارس . فأوقعوا مع عسكر تيمـور لنك واقـعـة قـوية ، فـانكسرت طلائع تيمور وولّوا مدبرين .

وفى تاسع عشره، حصلت وقعة كبيرة بين العسكرين واندحر عسكر السلطان حتى قبة يلبـغـا . لكن السلطان ومماليكه ثبـتـوا ، وكسروهم ، وظلوا يطاردونهم حتى حال الليل بين المتـقـاتلين . وقُتِل فى ذلك اليوم خلائق من العوام والفرسان ما لايعلم عددهم إلا الله. ومازال البرد شديداً والأرض موحلة من الثلوج والأمطار .

تفصيل (١١)

شـــعـــبـــان : (يتردد صوته فى الظلمة عبر شوارع المدينة) بردان يمّه .. جوعان يمّه .. هاتى حضنك .. هاتى بزك يمّه .. دفّينى يمّه .. اسقينى يمّه .. بردان .. جوعان .. يمّه .. (قاعة فى القلعة ، السلطان فرج بن برقوق . حاجب السلطان . آزدار . الشيخ التاذلى . ابن خلدون).

الحـــــاجب : دعوناكم وأنتم صفوة الخاصة ، كى نطلعكم على أمر خطير .

الـتـــــاذلـى : (بتهور) الله أكبر .. جاء نصر الله والفتح . (ينظر إليه الحاجب بقسوة ، فيطأطىء التاذلى رأسه، ويحس بالخجل)

الحـــــاجب : ما سأقوله سر خطير . أطبقوا صدوركم عليه . ومن أذاعه فرّط فى حق سلطانه .

آزدار : معاذ الله ..

الـتـــــاذلـى : كيف نفرط بسر سلطانى !

ابـن خـلـدون : السر فى بئر إن شاء الله .

الحـــــاجب : قررنا أن نرحل الليلة إلى مصر .

(يتبادل الجميع نظرات ذاهلة)

آزدار : والحرب . !

التـــــاذلى : يرحل السلطان .. كأنى لم أفهم !

الحـــــاجب : جاءتنا أخبار مقلقة ، تستدعى رحيلنا بلا إبطاء .

التـــــاذلى : وهل هناك خبر أشد قلقاً من حربنا مع هذا الكافر!

الحـــــاجب : نعم .. أن يغتصب العرشَ طامع .

الســلــطــان : (بلهجة صبيانية) اذبحوا الجركسى . واحفظوا لى عرشى .

الحـــــاجب : فى الجو فتنة . تسحَّب أمراء تحت ستر الليل ، وعادوا إلى مصر كى يولّوا لاشين الجركسى .

التـــــاذلى : ما أهمية هذه الفتنة الصغيرة أمام الطامة التى تهدد الأمة بأسرها ! أنترك الخطر الجسيم لنتدارك الخطر الهزيل !

الســلــطــان : (يهز كتف التاذلى بغضب) أتعتبر ضياع عرشى خطراً هزيلاً !

آزدار : (بلهجة مهدئة) إنما يقصد الشيخ أن خطر تيمور مؤكد ، وهو أمامنا ، أما خطر الجركسى فقد يكون دسيسة أو مبالغة .

الحـــــاجب : وإن صـــحّ الخبـــر .. يتداعـــى البنـــاء وراءنا

، ولا يبقى لنا شيء .

التـــــاذلى : (**يبـاعـد المشـخص بينه وبين الدور**) فى تلك الليلة .. ليلة العشرين من جمادى الأولى ، سنة ٨٠٣ هجرية ، لم يستشر السلطان وحاجبه حين قرر الفرار أحدا من الخاصة أو العامة ، ولكن حين شاع الخبر ، فار التاذلى غضباً ، وتمنى أن يواجه السلطان ، وأن يقول رأيه (**يعود ، المشخص إلى دوره**) يامولاى .. فى هذا الوقت الذى تخوض فيه معركة الأمة . لن يجد المتآمرمؤيداً أو نصيراً .. حتى الحثالة من الرعاع ستمقت عمله ، وتخيِّب سعيه.

الحـــــاجب : تعوَّد الناس أن ينتصروا للغالب .

التـــــاذلى : اليوم يختلف الأمر .. ما يهم الناس جميعاً هو حرب التتار ، لا حرب العرش .

الحـــــاجب : لا نقلل من خطر التتار ، لكن كيف نخوض الحرب إذا تداعى البناء وراءنا .

التـــــاذلى : يامولاى .. البناء كله هنا . فى هذه الرقعة التى تفصل بيننا وبين جحافل العدو ، سيتقرر مصير العرش والسلطنة والأمة .

الحـــــاجب : إذا نجح الجركسى ، فلن تكون الحرب هنا .. بل

هناك فى قلعة القاهرة .

التـــــاذلى : إذا واجهنا هذه المحنة ، وكسفنا شمس هذا اللعين ، فإن الأمة بمصرها وشامها ستلعن المتآمرين ، وترفع للسلطان العرش الذى يليق بالظافرين .. عرش مسبوك من الحب والولاء .

الســلـطـان : لا أستطيع الجلوس على الحب والولاء. أريد عرشى.

الحـــــاجب : ما فائدة أن ندحر تيمور إذا خسرنا المُلك !

التـــــاذلى : وما فائدة أن تربح المُلك إذا ضاعت المملكة !

الحـــــاجب المملكة يمكن أن تُستردَ ، أما المُلك فهيهات أن يستردَّه من يخسره .. وعلى كل ، الوقت يستحثنا ، ولم نجتمع بكم للجدل والمماحكة .

التـــــاذلى : مرة ، حاصر العدو أحد السلاطين فى قلعته ، فنصحه قاضيه بالفرار ، فأجابه السلطان «ليس هذا برأى مصيب ، أنجو أنا ، وأترك رعيتى ليوم عصيب!» ونحن .. أتتركنا يامولاى أكلة لتيمور .! ما شرط السلطان إن لم يكن حماية العباد والبلاد !

الحـــــاجب : **(بدأ يحتد ويغضب)** شرط السلطان هو أن يوطد سلطانه . علِّمه يا ابن خلدون لماذا يحارب السلاطين، ولماذا يسالمون ؟ لماذا يقطعون ولماذا يصلون ؟

ابـن خـلـدون : فصاحة مولاى أبلغ من تعثر عبارتى .

الـتـــــاذلـى : (صائحاً) أتسمى الخذلان فصاحة يا ابن خلدون .!

ابـن خـلـدون : السلطان أدرى منا بما هو واجب وصواب .

الـتـــــاذلـى : إن سلطاناً لا يحمى بلاده وعباده يفقد شرعيته.

الحـــــاجـب : أتخوض فى شرعية السلطان .! والله لو كان الوقت غير هذا الوقت لوسطتك بسيفى . ومن أنت أيها العجوز المخرف حتى تقرر شرعية السلاطين !

الـتـــــاذلـى : لو أن هذا السلطان يتمتع بالشرعية لما أصابكم الهلع ، لأن طامعاً خسيساً تآمر عليه . لو أن هذا السلطان يتمتع بالشرعية لما ترك بلاده نهباً للعدو ، وفرّ فى الليل شوقاً إلى قصره وكرسيه . أما من أنا .! فإنى مجرد واحد من علماء هذه الأمة، نذرت نفسى للشهادة ، ولا أبالى أن تأتينى الشهادة على يد سلطان جائر ، خائر ، أو على يد عدو غاصب ، كافر. إنى مجرد عالم وإنى أخلعك أيها السلطان.

الحـــــاجـب : أيها النائب .. خذه ووسطه . هذه المماحكة ضيعت لنا وقتا ثميناً . أفضينا لكم بما لدينا ، فاحفظوا السر وتدبّروا الأمر بعدنا . (**يخرج السلطان والحاجب، يلحق بهما ابن خلدون محاولاً الكلام**

مع الحاجب)

التـــــــاذلى : (إلى آزدار) أتوسطّنى أيها الأمير ، أم تترك التتار يفعلون؟

آزدار : والآن .. كيف نواجه هذه المحنة ؟

التـــــــاذلى : كما كنا نفعل قبل مجيء السلطان ، وإذا لم تشأ أن تنفذ الأمر السلطانى ، فسأذهب إلى موقعى على الأسوار .

آزدار : إذهب يا شيخ إذهب .

(تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : فلما كانت آخر ليلة الجمعة ، حادى عشرين جـمـــادى الأولى ، ركب الأمـــراء ، وأخـــذوا السلطان الملك الناصـر فـرج فى فـرقـة من الخـيـالة ، وسـاروا به من على عـقـبـة دمـر يريدون الديار المصـرية ، وتركـوا العـسـاكـر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع .

وأما بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغـيـرهم ، لما علمـوا بخـروج السلطان من دمـشق ، خـرجـوا إثره فى طوائف يريدون اللحـاق بالسلطان ، فـأخـذ غـالبـهم التـتـار وسلبوهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وكـان أهل دمـشق فى الليل والنهـار ملازمين الإقـامـة على الأسوار. وفى تلك الليلة صعد الناس إلى مكان عـال، وإذا بأمـاكن مـخـيم السلطان قد خلت من النار، ولم يعرف أحد ما الخبر ، وأصبحوا وقد خلت الديار ، ولم يبق فى قـبـة يلبـغـا نافخ نار ، وقـال الناس : السلطان هرب ، فانقصم ظهر الناس وتفاقمت الهموم ، وتخبطت الأوامر والأمور .

تفصيل (١٢)

(على الأسوار .. حركة مضطربة ، شباب يروحون ويجيئون ، استعدادات قتالية . بعد قليل يظهر الشيخ التاذلى ويحتشد حوله جمع من الناس نرى بينهم أحمد ومروان ، يخطب التاذلى فيهم)

التـــــــاذلـى : أيها الناس ..أنتم اليوم بلا سلطان . هرب السلطان، وتركنا نواجه وحدنا هذا الكافر الجبار تيمور لنك ، وأعرف أن مجيئه وفراره على هذا النحو قد بلبل الخواطر وفتّ عزائم الرجال . وأقول لكم الحق .. لو كنا غير ما نحن عليه لكان لنا سلطان جدير بالسلطنة . سلطان يعرف كيف يقود الأمة فى شدتها ، وكيف يصون أرضها وناسها ، وليس الظرف مناسباً كى أستفيض فى شرح الأسباب التى أدت بنا إلى هذا المآل ، ولكنى أريد أن أخلّص ذمتى ، وأن أعترف لكم بما اقترفته نفسى من الهوان ، وما تتحمله من فساد الأحوال . فى زمن ليس ببعيد كان العلماء والفقهاء فى مقدمة أهل الحل

والعقد ، فى كل ما يتوالى على الأمة من عوارض وأحداث . وكان القادة والأمراء يبالغون فى إجلال القضاة والفقهاء ، ويرون أن بهم عرفوا دين الإسلام، وفى بركتهم يعيشون ، وحسبُ أعظمهم قدراً أن يقبِّل يد الفقيه والقاضى . ولكن الدنيا زينة وفتنة . وقد أغرتنا نحن العلماء زينة هذه الدنيا ، فتهافتنا عليها ، ورحنا نتوسل الأسباب لكى نصل إلى المناصب . لم نتورع عن الحِطّة وهدر الكرامة ، ولم نترفع عن الرشوة وشراء العلامة ، وأصبح يكيد بعضنا إلى بعض . وكلنا نضطرب فى هذه الدنيا وفتنتها ناسين علمنا . وناسين الأمانة الموكولة إلينا . وبدلاً من أن نكون طليعة الأمة ، وكلمة الحق التى تقوّم الأحوال ، وتردع السلاطين ، نزلنا من أهل الدولة منزلة سوء . وتكلم فينا أقل المماليك شأناً ، وأرذل الباعة بكل قبيح ، عقوبة من الله لنا ، لامتهاننا العلم ، وخضوعنا فى طلب الدنيا . وأنا نفسى أيها الناس ، مرَّ على حين لم أرعَ فيه مُقامى، ولم أحمل أمانتى . رشوت وتزلفت لكى أحصل على منصب قاض القضاة ، ولكى أتقرب من أهل

السلطان والحظوة . وأنى أستغفر الله على ما تقدم وما تأخر من ذنب ، ولعل الرؤية التى زارنى فيها النبى صلاة الله عليه وسلامه هى بشارة وعلامة . بشارة على الغفران وعلامة على الواجب الذى يتعين علىّ أن أتمّه . واجب الشهادة ، والإسراع حفيفاً لملاقاة ربى .. أيها الناس .. قال لى الرسول الكريم «لن يكون الموت إلا كعبور جدول من الماء العذب» . وهو وسط الخضرة . وسط الضوء والخضرة ينتظرنا على الضفة الأخرى ، لكى يمسح على جراحنا ، ويبارك جهادنا . أيها الناس الآن وأنا أتأهب للشهادة ، يمكننى أن أسترد قَدْرى ، وأن أؤدى الأمانة الملقاة على كاهلى ، وأعلن ، أنا القاضى المالكى عزل السلطان ، وتلك الطغمة من الأمراء ، الذين ينتهكون الحقوق ، ويتسلطون على العباد . أيها الناس .. سأنوى الآن ، وسأصلى على نفسى صلاة الغائب . ومن شاء منكم فليتبعنى . وليس أمامنا والله إلا المصابرة والقتال .

(ترتفع أصوات .. الله أكبر .. يبدأ التاذلى صلاته وخلفه كل الناس إلا قليلهم ، وتتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : ولما أصـبح أهل دمـشق وقـد فـقـدوا السلطان والأمـراء، غلّقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ، ونادوا بالجهاد ، وزحف عليهم تيـمور بعساكره ، فقاتله أهل دمشق من أعلى السور أشـد قـتـال ، وردوهم عن السـور والخندق ، وأسروا منهم جماعة ، وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الألف .

وفى هذا اليوم ، هبت ريح باردة ، تلزق على الوجه وتجعل الأنف كقطعة البللور . وارتفعت المياه فى بردى وصـارت تجـرى على قـوة ، وتجرف الأغصان والجذوع المتكسرة .

تفصيل (١٣)

أصـــــــوات : (فى البداية تتناهى بعيدة ، ثم تتوضح أكثر ، ثم تعلو وتتصاعد من حناجر كثيرة) مات التاذلى .. مات التاذلى ..

شـــعـــبـــان : (يختلط صوته الذى يزداد عمقاً وانجراحاً مع الأصوات التى تتعى التاذلى) يمّه .. هاتى بزّك يمّه .. عطشان يمّه .. أعطنى حليبا يمّه .. هاتى بزّك يمّه .

المنمنمة الثانية

ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون

أو

محنة العلم

تفصيل (١)

(بيت الشيخ التاذلى . شرف الدين ، تلميذ ابن خلدون يجمع أمتعتهما ، لكى ينقلها من البيت . تأتى سعاد وخلفها طيرة)

شـــرف الدين : (مرتبكاً) لا أعرف كيف أجد الكلمات . إنى أشاطركم اللوعة مشاطرة الأهل .. ولا أدرى هل ينبغى أن نبكيه أم أن نفرح له ! لا تعرفين مقدار إعجابى به . وكم أثر بنا المثل الذى قدمه !

ســـــعـــــاد : كان يسعى إلى هذا الختام ، وناله ، ولعل مقامه الآن خير من مقامه بيننا . هل حضر سيدى ابن خلدون الجنازة ؟

شـــرف الدين : كان شديد التأثر والحزن ، ولكن وعكة منعته من حضور الجنازة . يا الله . ! لم أر فى حياتى جنازة احتشد فيها هذا الجمع من الناس . كان النعش كأنه يطير فوق الأكف . وكانت الجموع تتفجر انفعالاً وحماسة ، وكأنهم يقولون سنواصل دربك حتى نلحق بك ، أو تزول هذه الغمّة .

ســـــعـــــاد : هل تركت سيدك المتوعك وسرت فى الجنازة ؟

شـــرف الدين : هو الذى شجعنى .. ما كانت أستطيع ألا أحضر الجنازة .

ســـــعـــــاد : كم كان أبـى يُجِلّ سيدك . لقد استبشر خيراً بمجيئه ، واعتبره أيداً وسنداً لنا فى هذه المحنة . هل سمعت عن خطبته ياشرف الدين ؟

شـــرف الدين : سمعت عنها . ! بل حفظتها وسجلتها . الناس جميعا يتناقلونها ، ويحفظونها .

ســـــعـــــاد : يبدو أنه أسرف فى القسوة على نفسه .

شـــرف الدين : أتسمّين هذا السموَّ قسوة . ! نعم .. لقد سما على نفسه ، وتجاوز صغائر هذه الدنيا ، وختم حياته ختاماً طاهراً مجيداً . حقا .. ما أسعد من يقتدى به، وينال حسن ختامه !

ســـــعـــــاد : لا أدرى .. أعتقد أنه كان يرتب المجريات بدأب وعناد، كى يفوز بهذا الختام . منذ تناهت أخبار تيمور ، ومنذ رأى تلك الرؤيا ، بدا إنساناً آخر ، إنساناً انكشفت أمامه طريق جديد ، ولم يعد يستطيع التوقف حتى يصل إلى غايتها . كان يبدو وكأن نداء عميقاً ومتسلطاً يناديه ، منذ فترة وقبل أن تأتوا ، عرفت أنه يمضى كما لو كان مسيرًا بقوة

خارقة ، لكى يلبى النداء الذى يناديه .

شـــرف الدين : لن ينال تيمور بغيته إذا عرف أهل الشام كيف يقتدون به .

ســـــعـــــاد : هل تعتقد أنهم لن يسلموا المدينة ؟

شـــرف الدين : (مستنكراً) ستكون كارثة إذا سلّموا المدينة.

ســـــعـــــاد : إنى أعرف كيف يفكر علماء وأعيان المدينة . أعتقد أيها المصرى أن الكارثة قريبة ، ولعلها تقع غداً أو بعد غد .. نحن أيضاً جمعنا أمتعتنا، وحزمنا ما هو ضرورى لنا .. اليوم سنترك البيت ، وننتقل إلى القلعة . تلك كانت وصية أبى لنا ، وتلك كانت وصيته لأمير القلعة . أين ستقيم مع سيدك ؟

شـــرف الدين : فى المدرسة العادلية .

ســـــعـــــاد : إنها مكان لائق .

شـــرف الدين : لن ينسينا أى مكان دفء وحفاوة هذا البيت .

ســـــعـــــاد : أنك طيب أيها الشاب . ودت ، أنا وأمى ، لو بادَرَنا سيدُك بكلمة عزاء .. ولكن هذا حمق نساء . عالم كابن خلدون هو دائما معذور ، ولا يجوز أن نبخس قدره بالملامة والعتاب . هل وضبت كل شىء ؟ ألا تريد مساعدة ؟

شـــرف الدين : (مرتبكاً) لا .. لقد انتهيت . (متردداً) لا أعرف كيف تجرى الأمور .. ولكن إذا اقتضت الظروف .. هل تعتقدين أن الانضمام إلى القلعة ممكن ؟

ســـــعـــــاد : بماذا تفكر أيها الشاب ؟

شـــرف الدين : لا أدرى .. هو خاطر جال فى ذهنى بعد حديثك عن العلماء والأعيان .. (متردداً) وربما بعدما علمت أنكم ستذهبون إلى القلعة .

ســـــعـــــاد : عندما يحين الوقت سندبر الأمر . حىّ معلمك وبلغه سلامنا . أشكر تعطافك ياشرف الدين ، ولعلنا نلتقى فى ظرف أفضل .

شـــرف الدين : (مندفعاً) أرجو فعلاً .. حقاً .. أرجو أن نلتقى .

(تمضى سعاد ومعها خادمتها ، يقف شرف الدين ساهماً للحظات ، ثم يصحو من شروده ، ويبدأ برفع الأمتعة تأهبا للخروج ، وتتلاشى الاضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفى ٢٢ جمـادى الأولى وبينما أهل دمـشق فى أشد مـا يكون من القتال والاجتهاد فى تحصين بلدهم، قدم عليهم، رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بعد.. «الامير يريد الصلح» ، فـابعثوا رجـلاً عـاقـلاً حـتى يحدثه الأمير فى ذلك.

وما زال البرد والزمتة على حالهما من الشدة.

تفصيل (٢)

(العلمـاء.. ابن مـفلح، وابن النـابلسى، وابن العز، ومعهم التاجر دلامة)

ابن مـــفلح : (متمسكناً) يارب.. ولكن كيف يُعرَف الصواب.!

ابن النـابلسى : حقاً.. هذا هو السؤال. كيف يُمتحَن الصواب.!

ابن مـــفلح : طوال الليل وأنا أمخض هذا الأمر، وما حصلت على زبدة أو جواب. وخطر لى أن أخرج، وأقول للناس ليس لدى إلاحيرتى، ولاأدرى فى هذا الظرف كيف يُعرَف الصواب !

دلامـــــة : ليس الظرف مناسباً للمداورة ومداهنة العامة. كلنا نعرف ما هو الصواب فى حالتنا.

ابن العـــز : صحيح.. ينبغى أن نكون صلاباً فى موقفنا، وقساة مع الناس فى حملهم على رأينا.

ابن مـــفلح : هل يعنى ذلك أنكم متفقون على أن تسليم المدينة هو الصواب.

دلامـــــة : لاتتلاعب يا ابن مفلح.. أنت أكثرنا يقيناً بأن هذا هو الصواب. كم مرة تحدثنا فى الأمر! إذا لم نسلم الآن المدينة بالأمان فكم نستطيع الصمود! نعم.. إن أسوارنا قوية، وبعض الناس ولاسيما أولئك

الأحداث، يبدون اندفاعاً وحماسة للقتال. ولكن إذا استطاعت الأسوار أن تصمد أمام تيمور فترة من الزمن، كيف سيكون حالنا هنا فى المدينة! ألن تختلط الأمور، وتضيع المراتب، ويصبح الحال فوضى يهون أمامها الاحتلال.. سيصير كل حامل سيف رأساً، وسيكون علينا أن نغذّى الناس جميعا من أرزاقنا وأموالنا.. وبعد أن تكون قد ضاعت الأموال والمقامات، يظل علينا أن نواجه غضب تيمور الذى لن يفلت منه حى أو جماد.

ابن العـــــز : ولا تنسَ يا ابن مفلح أن أرزاقك كلها خارج السور، وأننا إذا لم نسلم بالأمان، لن تستطيع حماية شىء من أرزاقك.

ابن مـــــفلح : أعرف.. أعرف.. ولكنى خائف من الناس: الدماء فائرة والعقول تلبّستها الأوهام بعد صمود يوم الجمعة ومقتل ذلك المخرّف.

إبن النابلسى : حظى هذا المخرّف بجنازة يحسده عليها السلاطين .

ابن العـــــز : كان كثير الحركة، طلق اللسان، والناس تؤخذ بالأوهام وتنميق الكلام.. ولكن هذا لايعنى أن البلد خلت من العقلاء، وأن علينا أن نسلمَ مصيرنا

وشرفنا لتهور بعض الأحداث. إذا رأينا أن التسليم هو الصواب وأعتقد أنه الصواب، فيجب أن نتخذ القرار، وأن نواجه الناس بحزم وإقناع.

ابن النابلسى : هل تعتقدون أن رأى ابن خلدون سيوافق رأينا . ؟

ابن العـــــز : أعتقد أنه سيوافقنا الرأى. وعلى كل بعد قليل سنعرف رأيه على اليقين.

دلامـــــــة : ما يهم الآن، هو أن نكون رأياً واحداً وألا نبدى لجلجة أو تردداً. علينا أن نتخذ القرار، وأن نتعهد بالقسم على المضى به. وأبدأ بنفسى.. إنى مع تسليم المدينة بالأمان، وأرشح ابن مفلح الذى يحسن الأعجمية، كى يقوم بالسفارة، ويتقدم وفدنا إلى تيمور.

ابن العـــــز : وهذا هو رأيى .. على أن نكون جميعاً فى الوفد.

ابن النابلسى : وأن نتقاسم هذا الأمر، خيره وشره.

ابن مـــــفلح : على بركة الله.

ابن العـــــز : فلنقرأ الفاتحة.

ابن النابلس : (يباعد المشخّص بينه وبين الشخصية) يصف مؤرخ قديم، لعله الحافظ بن الحجى، شمس الدين النابلسى فيقول: ولم يكـن بالمرضـــى فى شهادته

ولا قضائه ، وباع كثيراً من الأوقاف بدمشق. قيل إنه ما أبيع فى الإسلام من الأوقاف ما أبيع أيامه. وقلما وقع منها شيء صحيح فى الباطن. وفتح على الناس باباً لاينسد أبداً. ولما جاء تيمور لنك، دخل معهم فى أمور منكرة، ونُسبت إليه أشياء قبيحة من السعى فى أذى الناس وأخذ أموالهم.

ابن العـــــز : **(يباعد المشخص بينه وبين الدور)** أما ابن العز فيصفه مؤرخ قديم قائلاً: اشتغل بالقضاء فترة. ولما كانت فتنة تيمور، دخل معهم فى المنكرات، وولى القضاء من قبلهم، ولُقّب قاضى المملكة، واستخلف بقية القضاة من تحت يده. وخطب بالجامع باسم تيمور ودخل فى المظالم، وبالغ فى ذلك، فكرهه الناس ومقتوه.

ابن مـــــفلح : **(يباعد المشخص بينه وبين دوره)** وقال المؤرخ عن ابن مفلح: ألّف عدة كتب، منها كتاب الملائكة وشرح المقنع ومختصر ابن الحاجب، وعدم غالبها فى فتنة تيمور. انتهت إليه فى آخر عمره مشيخة الحنابلة، ثم ولى القضاء مستقلاً فى رجب سنة ٨٠١ هجرية. ولما جاء تيمور، خرج إليه ومعه جماعة

وجرى منه لأهل دمشق أمور، وتفاقم الأمر وحصل عليه تشويش من تيمور فعذب حتى أعطب.

دلامـــــــــة : **(يباعد المشخص بينه وبين الدور)** أما دلامة التاجر فقد أخطأ المؤرخ حين أهمله، وجهل قدره، فلم يعرّفه.

(تتلاشى الاضاءة)

تفصيل (٣)

(قاعة فى المدرسة العادلية. ابن خلدون وشرف الدين يرتب القاعة، ويضع مقاعد بينما يدوّن ابن خلدون بعض الأفكار)

شرف الدين : صار المكان لائقاً لاستقبال العلماء والأعيان.

ابن خلدون : **(يتريث فترة قبل أن يرفع رأسه)** العلماء والأعيان يقبلون علىّ لاعلى المكان.

شرف الدين : أعرف ذلك ياسيدى. من يبالى بالمكان حين يكون فى حضرة الشهاب اللامع سيدى عبد الرحمن. لاشك أنهم جاءوا كى يضعوا الأمر بين يديك. وهل هناك رجل سواك يمكن أن توضع هذه الأمانة بين يديه !

ابن خلدون : أية أمانة؟

شرف الدين : أن تهدىء روع الناس وتحملهم على الجهاد.

ابن خلدون : ألاتعلم ياشرف الدين أن صبغة الدين حالت، وأن عصبية العرب زالت. وأن الجهاد لم يعد ممكناً.. لا.. لايتحدث عن الجهاد هذه الأيام إلا رجل يضرب فى الوهم، أو يريد أن يلبّس على الناس.

شرف الدين : لاأتحدث عن جهاد الصحابة والتابعين وأيام الفتوحات، وانما أعنى مدافعة هذا الكافر تيمور،

وأهل الشام يبدون عزماً على القتال، وهم لايحتاجون إلا عالماً مثلك يشد أزرهم، ويضيء قلوبهم بأنوار تجاربه وحكمته.

ابـن خـلـدون : ماذا تخرّف ياشرف الدين ؟ أتريدني أن أتحول إلى القتال ؟ هل جئت إلى دمشق مقاتلاً أم عالماً ؟ هل جئت كي أحمل السيف أم كي أسجل الأحداث وأستصفي زبدتها وعبرتها ؟ حذرتك مراراً أن الهوى والانفعال يفسدان البصيرة، ولكن يبدو أن هياج التاذلي وهلاكه غلّبا لديك انفعالية الدهماء على حكمة العلماء.

شـرف الدين : عفوك يا سيدى... لاأنكر أني مأخوذ قليلاً بما فعله التاذلي. آه لو سمعت ابنته.. كان يجلّك إجلاله للأولياء، وكان يعتبر قدومك عوناً من السماء.

ابـن خـلـدون : كان يريد أن يعلو تحت نجمي، وأن يستقوى بجاهي.

شـرف الدين : أيمكن ياسيدى أن تزدريه رغم ماقدمه من تفان وكرم.!

ابـن خـلـدون : (**باحتقار**) لم يكن التاذلي إلا موسوِسا وأنا أنفر من الموسوسين.

شـرف الدين : ماذا تعني يا سيدى بالموسوسين ؟

ابـن خـلـدون : هم هؤلاء الذين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ومواجهة الغزاة ولايعرفون ما يحتاجون إليه من العصبية، ولايشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم. إنهم كالمجانين أو الملبَّسين ، يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم ، وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذه الدعوات يمكن أن تصل بهم إلى ما يأملون من الرئاسة والجاه. وهى لاتصل بهم إلا إلى الهلاك وسوء العاقبة. ومايحتاج إليه هؤلاء الموسوسون هو المداواة إن كانوا من أهل الجنون وإما التنكيل بالقتل أو الضرب أن أحدثوا هرجا، وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الكاذبين.

شـــرف الدين : آه ياسيدى.. أكاد لاأصدق.. أيمكن أن تصف رجلا مات وهو يقاتل العدو بالمجنون أو الكاذب ؟

ابـن خـلـدون : أليس مجنونا أو كاذبا هذا الذى يتصدى لأمر ليس له، ولايملك أسباب القيام به .! من ندبه للقتال ؟

شـــرف الدين : حميّته وحبه لأهله وبلده.

ابـن خـلـدون : لا.. لم يكن حب الأهل والبلد إلا دافعا ظاهرياً، وما كان يدفعه على الحقيقة، انما هو الرغبة فى التّشوّف على الناس ومباهاتهم.

شـــرف الدين : أيدفع حياته ثمنا للتَّشوُّف والمباهاة ؟

ابـــن خـلـــدون : هؤلاء الموسوسون عميان البصيرة. وهم بالغفلة يرمون بأنفسهم إلى التهلكة. على أية عصبية كان يعتمد التاذلى فيما زعمه من القيام بالجهاد ؟

شـــرف الدين : على عصبية أهل الشام وحماستهم للقتال. لقد تحدثت مع الكثيرين أثناء الجنازة ولمست بنفسى عزمهم على الصمود والمقاومة.

ابـــن خـلـــدون : (متأففاً) هذه ليست عصبية ياشرف الدين. تشدُّقُ الأحداث وهياج العامة والدهماء ليس من العصبية فى شىء والناس هنا أهل مدنية وحضارة، بلغ فيهم الترف غايته، وسقطت منهم العصبية بالجملة، يلبَسون على أنفسهم فى الشارة والزى وحمل السيف والرمح، يموّهون بها. وهم فى الأكثر أجبن من النسوان فى الحماية والمدافعة.

شـــرف الدين : هل أفهم يا سيدى أنك قررت أن تشير عليهم بالاستسلام ؟

ابـــن خـلـــدون : (متضايقاً) لم أقرر شيئاً بعد. عندما يأتون سنقلّب الرأى ، ونمعن النظر.

شـــرف الدين : أخشى يا سيدى..

إبـن خـلـدون : (مقاطعاً) إذا لم تسيطر على فورة عواطفك فلن تحوز ملكة العالم وشروطه.

شـــرف الدين : إنى أقدر نصيحتك يا سيدى ولكن هناك ما يحيرنى قليلاً : لاشك أن من شروط العالم، أن يكون محايداً ودقيقاً حين يسجل أحداث عصره ووقائعه ولكن.. لاأدرى.. إنى أتساءل فقط ياسيدى.. هل يجوز أن يسلك العالم إزاء المحن التى تصيب قومه وبلاده مسلك الحياد ؟ وهل هذا من شروط العلم ونزاهته ؟

ابـن خـلـدون : هذا سؤال يفصح عن نباهة. وما أحبه فيك هو نباهتك وحياؤك . يبدو أنهم وصلوا . لن أنسى سؤالك وفى العشية سنبادر للاجابة. اذهب الآن، ورحب بالعلماءوالأعيان.

(تتلاشى الاضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفى ٢٢ من جمادى الأولى، اجتمع الأعيان والعلماء مع ابن خلدون فى المدرسة العادلية، وقد وافق فكرهم فكره، واتفقوا على التسليم، وارسال ابن مفلح إلى تيمور، ليتداول معه شروط الأمان، ولكن أمير القلعة أنكر عليهم هذا الاتفاق، وأغلظ لهم فى القول فلم يعبّره الأعيان، وقالوا له: أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على مدينتنا.

وكان الناس فى غاية التشويش.

وفى الغداة، أرسلوا ابن مفلح ومعه شخصان من الأعيان. أرخوهم من أعلى السور بسرياق، وكانوا يرفعون المصاحف فتلقاهم رجال تيمور، ومضوا بهم إليه.

وفى هذا اليوم، سمعت أن أتاناً ولدت كراً صغيراً له رأس انسان وليس له ذنب. وهذه من الغرائب والعلامات.

وانحبس المطر مع شدة الزمتة.

وبردى يجرى بين السور وعسكر تيمور، والماء يغدق فيه غدقاً.

تفصيل (٤)

(الديوان فى قلعة دمشق. آزدار ونائبه شهاب الدين)

شـهـاب الدين : والآن ما العمل أيها الأمير؟

آزدار : مقرف. ! أعيان وعلماء ينوحون كالنساء ! لاشك أنهم بيَّتوا الامر منذ وقت طويل. لم يكن اجتماع كلمتهم ابن ساعته. لم نقلّب أمراً ولارأياً، كانوا متفقين على رأى واحد، وتركوا ابن خلدون يقدمه ويزيّنه. طراز من العلماء فاسد، جبان، متهالك !

شـهـاب الدين : هذا كله نعرفه. والغضب لن يبدل قرارهم، وابن مفلح يتحرق للخروج إلى تيمور فما العمل أيها الامير ؟

آزدار : لا ادرى.. سأحرق المدينة على علمائها وأعيانها وعامتها.

شـهـاب الدين : هدىء غضبك أيها الامير.. لن تحرق المدينة، ولن تطاوعك يدك على مسها بالأذى.

آزدار : اعرف .. اعرف.. ولكن الغضب يخنقنى.

شـهـاب الدين : أيها الامير.. هذا وقت التروّى لاالغضب. حشرونا فى مأزق، وعلينا أن نجد حلاً قبل فوات الأوان.

آزدار : هل لديك اقتراح معين.. ؟

شهاب الدين : الواقع لا يوجد إلا سبيل واحد للخروج من المأزق الذى حشرونا فيه.

آزدار : وماذا ترى ؟

شهاب الدين : أن نسيطر على المدينة هذه الليلة.

آزدار : أن نسيطر على المدينة. !

شهاب الدين : نوزع رجالنا على النقاط الحساسة فوق الاسوار فى المدينة، ونضم إلينا الشباب الذين يريدون المقاومة والقتال. أما العلماء والاعيان فندفعهم إلى سجن القلعة، أو نجبرهم على ملازمة بيوتهم، والامتناع عن الاتصال بالناس. هذا هو التدبير الوحيد الذى يحفظ المدينة، ويمنع عزل القلعة والاستفراد بها.

آزدار : وهل تعتقد أن رجالنا يكفون لأداء هذه المهمة.! إنها خطة بارعة ولكن أخطارها هى الأخرى جسيمة.

شهاب الدين : أنا أعرف المدينة جيداً، وأعرف أن معظم أهلها يريدون المقاومة لا الاستسلام.

آزدار : ومع هذا فإن الاهواء متضاربة والأفكار مشوشة، والمسُّ بالعلماء والأعيان قد يشعل لنا فتنة تحرقنا جميعا.

شهاب الدين : ربما واجهنا حوادث متفرقة ولكن لن تنشب فتنة.

آزدار : لن أفرق رجالى الموثوقين ، وأبعثرهم فى فوضى المدينة. إنها مخاطرة جسيمة العواقب. افرض أن بعض الأحياء قاومت، أو أن الأعيان حرضوا الأتباع، وجندوا الزعّار والسفهاء، ورجالنا عددهم قليل، والمدينة تتوزعهم وتفك اللحمة بينهم. لا... هذه مخاطرةوخيمة.

شهاب الدين : ما نحن فيه يستحق المجازفة أيها الامير.

آزدار لايمكن أن أجازف بالقلعة ، وهى حصننا، وهنا سنرفع شرفنا، ونؤدى واجبنا. ثم مالنا ولهذه المدينة المتقلّبة . مدينة ، أعيانها وعلماؤها خائرون، ويتسابقون كى يلحسوا مؤخرة العدو.

شهاب الدين : المدينة هى ظهرنا، وما فيه من السلاح والرجال سيضاعف صمودنا.

آزدار : وإن ضاع رجالنا ولم نكسب المدينة لا.. لن أجازف بالقلعة.

شهاب الدين : أخشى أن نندم بعد فوات الأوان.

آزدار : ربما كتب علينا أن تكون هذه القلعة هى الحصن الأخير الذى يقاوم تيمور ويقول له لا..

شهاب الدين : ونترك المدينة تستسلم ، وتفتح أبوابها للتتار. !

آزدار : سنهددهم ونمنعهم من فتح الابواب، ولكن موقعنا هو هذه القلعة، هنا سنصمد، وهنا سنقاتل إلى ماشاء الله.

شـهـاب الدين : طيب.. هل نضم إلى القلعة المتطوعين من مقاتلى المدينة..؟

آزدار : لاأمانع.. ولكن عليك أن تحسب حساب المؤونة. لاأريد أن يفتقد الرجال الطعام والشراب وقت الحصار. تنتظرنا أيام مشهودة يا شهاب الدين.

شـهـاب الدين : نعم.. ستكون أياما مشهودة.

(تتلاشى الاضاءة)

تفصيل (٥)

مـــؤرخ قـــديم : (مع كلام المؤرخ يظهر مشهد إيمائى، ويمكن استخدام خيال الظل أيضا لعدد من الرجال فى صحن الجامع الأموى، يتجادلون ويتصايحون، يعلو الهـرج تدريجـيـا حـتى يتـحـول شـجـاراً واشتباكات تتخللها الصيحات الغاضبة) وعاد ابن مفلح فى نهاره هذا، منشرح الصدر والأسارير، وأخبر أن تيمور أكرم وفادته وتلطّف معه، وقال هذه بلدة الأنبياء والصحابة...

صـوت أحـمـد : لانسلّم.. وكلام هذا الأعرج الدجال كالضراط على البلاط.

مـــؤرخ قـــديم : وقد أعتقتها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدقة عنى وعن أولادى.

صـــــــوت ابن النابلسى : عساكره تغطى الأرض فما حاجته للكذب أو الخداع!

صـوت مـروان : كم أمَّن وكم خان !

مـــؤرخ قـــديم : ولم يبقَ لى الآن غرض إلا العود، ولكن لابد من أخذ عادتى من الطّقزات. والطقزات على عادة ملوك التتار هى تسع من كل صنف من أصناف الهدايا،

من المأكولات والمشروبات والدواب والملابس والتحف وسوى ذلك من الهدايا.

صـــــــوت ابن مـــــفلح : ومن منا يَفضل الإمام ابن تيمية.. ألم يخرج ابن تيمية إلى سلطان المغول غازان ويستخلص منه الأمان لدمشق الشام. !

مـــؤرخ قـــديم : وشرح ابن مفلح عن تيمور محاسن كثيرة، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله، ويرغبهم في طاعته.

صـــوت رجل : في المدينة ميرة تكفيها سنوات ، وأسوارها حصينة، ويمكن أن تصمد هي الأخرى سنوات فلمَ الاستسلام..؟

صوت ابن العز : هذا كلام جهّال.

مـــؤرخ قـــديم : وصار أهل البلد فرقتين، فرقة ترى مارآه ابن مفلح، وفرقة ترى محاربته، ولم تسمع قول ابن مفلح.

صـوت أحـمـد : أنت مَرَة..

صوت مـحـمـد ابن أبي الطيب : إليَّ تقول هذا يا بعرة الجمل.!

(يتشابكان)

مـــؤرخ قـــديم : وكـــان أكثر أهـــل البلـــد يرون مخـالفـــة ابن مفلح، ولـــم يرجعوا عن قتـــال تيمور وهم الجم

الغفير من أهـــل دمشق.

أصوات متداخلة : لانسلّم.

- بل نسلّم.

- إذا ضاعت الشام، ضاعت كل البلاد. وغداً يكبس القاهرة، ويتسلطن على عرش العاصمة.

- سنقاتل

- الأمان يحمينا.

- لن نرمى سيوفنا.

صـــــــوت ابن مـــــفلح : من استشار الجـاهل ضل، ومن جهل موضـع قدمـه زلّ.

- لانسلّم

- بل نسلّم

(يتـشـابك الناس فى عـراك، ترفع فـيـه السيوف)

صـــــــوت ابن مـــــفلح : **(جـهـوريا وآمـراً)** نحن العلماء والاعيان قررنا التسليم بالأمان . لامقاومة ولاقتال، ومن خالف ذلك قُتِل وهُدِر دمه.

صوت شعبان : يمّه... يمّه..... هاتى بزّك يمّه... يمّه

(تتلاشى الاضاءة ببطء، فيما يستمر العراك)

تفصيل (٦)

(منزل ابن خلدون فى المدرسة العادلية. السراج واهن الضوء، يحاول ابن خلدون إصلاحه فلايفلح، يبدو متوتراً، يذرع المكان جيئة وذهاباً. يدخل شرف الدين)

ابن خلدون : ما الخبر ؟

شرف الدين : الناس يتشاجرون فى الجامع الأموى، والغالبية ليست مع التسليم.

ابن خلدون : هذا خبر مقلق. أخشى أن يتوهم تيمور أن لى يداً فى هذا الانقسام. يجب أن نبادر إلى الخروج من المدينة مع السحر. انظر هذا السراج، ماذا دهاه!

(يعالج شرف الدين السراج، ويصلحه)

شرف الدين : ألن يخرج سيدى مع الوفد ؟

ابن خلدون : لا.. لاأريد أن أخرج مع الوفد. أريد أن أمثُل بين يدى تيمور وحدى. لقد سأل ابن مفلح عنى، وأخاف أن تساوره الظنون حولى، إن تفاقمت الفتنة بين الناس.

شرف الدين : لم يفت الأوان بعد ياسيدى.. نائب القلعة لن يسلم، ومعظم الناس يطلبون القتال.

ابـن خـلـدون : أين الهدايا التى حضَّرناها .! تعالَ نرتبها .

(يحـمل شـرف الدين من زاوية الغـرفـة بعض الاشياء، ويتناولها ابن خلدون)

ابـن خـلـدون : هذا هو المصحف.. **(يضعه على رأسه)** وهذه هى السجادة.. كانت لقية ثمينة، ولم ندفع فيها غالياً. هل تظن أنهم خدعونا بالسعر؟

شـــرف الدين : ألم ترَ شدة توقيره ياسيدى.! لوقبلت لقدّمها هدية لك.

ابـن خـلـدون : نعم.. إن الناس هنا يعرفون مقامات الرجال أكثر من القاهرة . وهذه نسخة من قصيدة البردة فى مدح النبى للبوصيرى مع شرحى عليها، هدية العالم يجب أن تنم عن الذوق والكياسة. ألاتنم هديتنا عن الذوق والكياسة. ؟

شـــرف الدين : وهل يعرف الأجلاف الذوق والكياسة. !

ابـن خـلـدون : لاتنس أنه ملك عظيم وحوله بطانة وافرة من أهل الخبرة والذكاء . لن نضع علب الحلاوة مع المصحف والسجادة والقصيدة. هات كيسين من الحرير. فى واحد علب الحلاوة، وفى الثانى المصحف والسجادة والقصيدة.

شـــرف الدين : ألا يمكن أن يغير سيدى رأيه ؟

ابـن خـلـدون : أغيّر رأيى.! بل أريد أن أقصى جناح الليل كى يبكر السحر فى البزوغ. سألتنى يا شرف الدين عن الحياد، وأقول لك إن ابن خلدون الإنسان ليس محايداً كما تظن، لكنه واقعى، ويعرف قوانين الأحداث ومجراها. جئت إلى الدنيا فى زمن الاضمحلال. وكلما كبرت وأمعنت النظر، ما وجدت حولى إلا آثار الاضمحلال وعوارضه. انقلبت أحوال المغرب الذى نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، ونزل بالعمران شرقاً وغرباً فى منتصف المائة الثامنة الطاعون الجارف الذى تحيِّف الامم. وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها. جاء الطاعون للدول على حين هرمها، فقلص من ظلالها. وأوهن من سلطانها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وضعفت الدول والقبائل نعم.. كيفما تلفت حولى، لم أكن أجد إلا الاضمحلال.. وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث

الارض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدّل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة وأجيالها والعوائد والنحل التى تبدلت لأهلها. وهذا ما أخذت نفسى به، وماتوفرت على إنجازه. أما الغضب والتحسر والمكابرة فقد تركتها للذاهلين والحمقى من غمار العامة.

شـــرف الدين : **(يبـاعـــد بينـــه وبين دوره)** لاشـك أن تلميذ ابن خلدون، إذا وجد، كان يحاوره عن زمانه وزماننا أيضاً، ولهذا لاغضاضة إن ساعدناه على صياغة شكوكه، وبلورة أفكاره.

ابـن خـلـدون : نعم.. أن أقفو أثر مؤرخ كبير كالمسعودى لزمن الاضمحلال هذا ... تلك هى بغيتى، وذاك هو شاغلى.

شـــرف الدين : أليس من مهمة العالم ياسيدى أن ينير للناس ضوءاً، أو أن يهديهم إلى سبيل يخرج بهم من الانحطاط.!

ابـن خـلـدون : لا.. ليست تلك مهمة العالم.

شـــرف الدين : وما مهمة العالم إذن؟

ابـن خـلـدون : مهمة العالم أن يحلل الواقع كما هو، وأن يكشف

كيفيات الأحداث وأسبابها العميقة.

شـــرف الدين : كان العلماء دائماً يحلمون ، ويبحثون عن السبل التى يعالجون بها علل عصرهم، ويصنعون للناس تصورات عن مجتمعات فاضلة تليق بالإنسان والمجتمع الإنسانى ألم يضع الفارابى كتاب (أراء أهل المدينة الفاضلة)! ألم يؤلف المعلم أرسطو كتابين فى الأخلاق والسياسة، وسواهم كثيرون؟

ابـن خـلـدون : هؤلاء لم يعرفوا علم العمران. ولم ينكشف لهم مايطّرأ عليه من العوارض الذاتية، والتغيرات الحتمية. هؤلاء لم يفهموا أن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته، وفيما يعرض له من أحواله. إن للعمران قوانين ثابتة ومطردة كتلك التى تحكم الفصول فى تعاقبها. والليل والنهار فى اختلافهما. وهذا الجهل هو الذى جعلهم يتوهمون أن أحوال الدول يمكن تغييرها بالوعظ والإرشاد، أو يمكن إقامتها على التمنى والأحلام. إن كتب الفارابى وأرسطو والماوردى وسواهم هى كتب فى السياسة المدنية. والسياسة المدنية هى فى العلوم أقل شأناً من علم العمران. هذا العلم ياشرف الدين

مستنبط النشأة، ألهمنى الله إليه إلهاماً، ولم يسبقنى إليه أحد من الغابرين. ولو أضاء الله أنوار هذا العلم للفارابى وأرسطو وأفلاطون لأعرضوا عما كتبوه، أو بدلوه بالكلية.

شـــرف الدين : أنا أعرف ياسيدى أنك جئت بعلم لم يسبقك إليه أحد، ولكن سأصارحك القول.. كلما قرأت فصلاً من فصول المقدمة شعرت بالانقباض وأدركنى اليأس. إذا كانت ظواهر العمران لاتحدث باختيار، وإنما بضرورة الوجود وترتيبه، فماذا يبقى للناس.! لايبقى لهم إلا الخمول والجريان مع هذه الدورة الجبارة، التى تدور بهم من البزوغ إلى التلاشى والموت ! ماذا يستطيعون أن يفعلوا حين تشرف دولتهم على الهرم! لاشىء.... لم تترك لهم إلاّ لبس الأكفان. والاستعداد للتفسخ والانحلال.

ابـن خـلـدون : ينتظرون ظهور المهدى ، أو يرصدون نذر القيامة وميقاتها، حتى تقهرهم ، وتسيطر عليهم عصبية جديدة أو غازية .

شـــرف الدين : كما هو حالنا الآن مع تيمور.!

ابـن خـلـدون : نعم .

شـــرف الدين : هذا علم محبط ياسيدى.

ابـن خـلـدون : المعرفة على الحقيقة، لاتبالى بالإحباط. ومهما كان وقعها على النفس ثقيلاً، فإنها أفضل من الزيف والدجل.

شـــرف الدين : وماذا يسعنا أن نفعل بهذه المعرفة !

ابـن خـلـدون : يمكن أن نفهم لماذا تداعى أمر السلطان وأفل نجمه. ولماذا يعلو شأن تيمور ويتألق نجمه.

شـــرف الدين : سيدى.. لماذا لاتقيم وزنا لجموع الناس، ومايمكن أن يفعلوه إذا وحّدت بينهم فكرة ومصلحة، وانعقد لديهم عزم وإرادة.

ابـن خـلـدون : فى غياب العصبية والشوكة، لاتنفع الفكرة والمصلحة. والعزم الذى يبدونه ليس إلا وهماً يخدعون أنفسهم به.

شـــرف الدين : ألا يمكن أن تغنى الفكرة والمصلحة عن العصبية.!

ابـن خـلـدون : لا... هذه كالدين تردف العصبية، لكنها لاتقوم مقامها، ولاتغنى عنها. إن صلة الدم والنسب مع إرادة الاستيلاء والغلب، هى أصل الدول، ومحرك الجماعات والأمم.

شـــرف الدين : بَعُدْنا عن البداوة.. ولعل من طبيعة الأحوال، أن

نفتش عن عصبية جديدة. عصبية قوامها وحدة الأمة ومصلحة العباد ومدافعة الطامعين والغزاة.

ابـن خـلـدون : إن العصبية لا تصطنع، ولا تختلق ، بل تصدر صدوراً طبيعياً. والعصبية فى هذه البلاد وهنت ولم يبقَ لها شوكة.

شـــرف الدين : لو أن سيدى يثق بالشعب، ويوليه ماأولى الملوك من النظر والاهتمام.!

ابـن خـلـدون : الناس بلا عصبية بلا حول ولاطول. وأغلب الذين يتنفَّجون هم السفهاء والدهماء.

شـــرف الدين : إذن.. لا أمل ولاحلم..

ابـن خـلـدون : فى هذا الغروب الشامل قد تكون قبسة الضوء الوحيدة هى وصف هذا الغروب، والشهادة عليه..

شـــرف الدين : حين تلمّ بنا الخطوب، ويهدد الخطر وجود الأمة، من المحزن الاّ يكون لدى العالِم مايفعله إلاّ وصف المحنة!

ابـن خـلـدون : حين تلم بنا الخطوب ويهدد الخطر وجود الامة، من المحزن ألايكون لدى الأمة من تستنجد به إلاّ علماء بلا قوة أو شوكة .

شـــرف الدين : لماذا لم تسافر مع السلطان ياسيدى. ؟

ابـن خـلـدون : لاأريد أن أتورط فى فتنة بين السلطان وأمرائه. (تغيب عيناه فى تأمل شارد) وهناك سبب آخر.. طوال حياتى، وأنا أعاشر وأخدم أمراء وسلاطين ناقصين، لاتتوفر لهم من شروط الإمارة أو الملك إلا أقلها.. والآن، تتوافر الفرصة كى ألتقى الملك على الطبيعة، فهل أضيعها.! ولكن .. إذا ساورته الظنون والريب، فقد هلكت.

شـرف الدين : هل أنت خائف ياسيدى. .؟

ابـن خـلـدون : هل أنا خائف.! فى زمن الغروب والهرج، حظٌ كبير أن ينجو المرء بنفسه وعلمه (يتمطى) أرهقنى هذا الجدل. لنسترح قليلاً، فأمامنا نهار حافل وعصيب.

(تتلاشى الإضاءة ببطء فيما يرقد ابن خلدون فى فراشه)

تفصيل (٧)

(فى بيت مروان يدخل مروان حاملا على ظهره صرة كبيرة، تخفّ زوجته وتساعده على وضع الصرّة على الأرض) .

مروان : هذا كل ما لدينا من الحرير . أين تقترحين أن نخبئه؟

خديجة : استرح الآن قليلا. ألا تريد أن تفطر ؟

مروان : لا شهية لدى.. فى صدرى ضيق وانحباس. منذ الفجر يتراءى لى غراب أسود يحوم فوق رأسى. لعلى رأيته فى المنام.. لا أدرى. لكنه يتراءى لى، ويلازمنى منذ الفجر.

خديجة : استهد بالله يا مروان.

مروان : لا إله إلا الله.. لا أخفى عليك. إنى متطيّر، ولا أعتقد أننا سنعبر هذه المحنة.

خديجة : لا يا مروان .. إنك تخيفنى . لا يجوز أن تفقد الأمل. الله رحيم ولن يتخلى عنا . هو الذى يكسر، وهو الذى يجبر أيضا.. هل تذكرت حلاوة طرابلس؟

مروان : نعم.. واشتريت لك أوقيتين منها.

خـــديجـــة : (بفرح) ماذا تنتظر.. بدأ لعابى يسيل.

(يخرج من أحد جيوبه لفة الحلاوة، فتلقفها خديجة بلهفة، وتلتهم بنهم غريب قطعاً منها).

مـــــــروان : أتشتهى الحلاوة إلى هذا الحد !

خـــديجـــة : وما حيلتى يا ابن عمى لقد أخفيت عنك سراً صغيراً.

مـــــــروان : أى سر ؟

خـــديجـــة : إنه الوحم. أتعرف ما هو الوحم ؟

مـــــــروان : هل أنت حامل ؟

خـــديجـــة : قل إن شاء الله.. ألا تأكل قطعة من الحلاوة !

مـــــــروان : نعم ساكل. ألا نستحق البشارة ! كم تاقت نفسى إلى هذه اللحظة. ولكن من يجرؤ على الفرح الآن !

خـــديجـــة : يجب أن نفرح. وسترى.. إن إيمانى بالله كبير، ولن يمسنا الأذى.

مـــــــروان : يا رب، وأنت القدير على كل شىء. نسألك اللطف والرحمة. **(يقترب منها ويتحسس بطنها)** إن مشاعر غريبة تفيض فى صدرى. أريد أن أصرخ. أن أخبر الناس. لا.. لا.. لن نخبر أحداً . سيكون هذا سرنا. والأمل الذى يقوّى عزيمتنا. لماذا لم تشعلى ناراً ؟

خديجة : قلت أمسك يدي في إيقاد الحطب. أخشى أن ينفد مالدينا قبل أن تستطيع تدبير كيس آخر.

مروان : سندبر. لا تخافي، صحتك الآن أهم شيء في الوجود، ولدينا وفر يكفينا. في هذه الصرّة، قطع من الحرير ثمينة جداً. أتعلمين.. لقد ثأرت من ذلّ طفولتي. ينبغي أن تعرفي شيئاً عن هذا الذل، وضعني أبي حين كنت طفلاً عند عمي كي يستعملني، ويعلمني الحياكة. كان يعرّيني، ويرفع رجلي إلى رأسي، كي يلفّ الخيوط على جسدي ويزردها. كان قاسياً، لايعبأ بي إن بردت أو تعبت. وكنت دائماً أشعر بالذل من عريّ والطريقة التي يستخدم بها جسدي الصغير. ومنذ تلك الأيام قررت أن أصبح معلم الصنعة. شهد لي معلم الحريريين بأني ماهر وفنان، وأن بعض القطع التي أحيكها، تحف رائعة، نعم.. صرت معلماً، وتزوجتك، وها أنا أنتظر طفلي الأول. آه.. تبدّد ضيقي. أشعلي النار، وأنا سأفكّ الصرة، وأبحث لها عن مخبأ.

(يفك مروان الصرة، بينما تحمل خديجة قطع الحطب، وترتبها في الموقد. طرق على الباب، يدخل أحمد مهتاجا).

أحـــمـــد : أكاد أجن.. يقيناً سأفقد عقلى.. خرج الكلاب يا مروان، خرجوا محملين بالهوان، وبكل ما يخطر على البال من الهدايا. لا.. لم يخرجوا، لم يسمح لهم أمير القلعة بالخروج من باب النصر، فتدلّوا كاللصوص من فوق السور.. أكاد أجن.

مـــــروان : اهدأ يا أحمد. كنا نعرف أن القرار اتُّخذ، وأنهم سيخرجون.

أحـــمـــد : وسيدخل التتار إلى دمشق.

مـــــروان : ماذا نفعل ! غلبنا الأعيان والعلماء.

أحـــمـــد : هؤلاء العكاريت.. هؤلاء الخونة.. هؤلاء السفلة.

مـــــروان : اهدأ يا أحمد، ولاتضيع علينا فرحتنا الصغيرة.

أحـــمـــد : أتتحدث عن الفرح.. وهل هناك فرح.. !

مـــــروان : إن خديجة حامل. وسأصبح أباً.

أحـــمـــد : حقاً. ! هذا وقته. وماذا ستسمى الولد.. ؟ تيمور..

خـــديجـــة : لا يا أحمد..

مـــــروان : ولماذا تريد دائما مغاضبتى ؟

أحـــمـــد : لأنك كالنساء العجائز، لاتفكر إلا فى شئونك الصغيرة. حريرك.. وبيتك وسلامتك.. والآن طفلك..

مـــــروان : وبماذا تريدنى أن أفكر ! أهذا كلام يا خديجة !

خـــديجـــة : فعلاً.. وعلام تلومه يا أحمد !

أحـــمـــد : **(وهو يخرج زجاجة من جيبه)** ألا تدركان ! إن التتار سيدخلون إلى دمشق . حين أتصور ذلك، أشعر بالجنون.

مـــــروان : اسمع يا أحمد.. لقد بذلنا جهدنا. ألم نبذل جهدنا ؟ ولكنّا غُلبنا، وعلينا الآن أن نهدأ. أن نتوخى الحذر، ونتدرب على الصبر وقوة الاحتمال.

أحـــمـــد : **(وهو يكرع من الزجاجة)** أى أن نتدرب على الخنوع والذل.

مـــــروان : **(صارماً)** لا أريد أن تشرب هذا المنكر فى بيتى .

أحـــمـــد : ماذا تعنى ! هل تطردنى ؟

مـــــروان : إنى خائف عليك.. ينبغى أن تهدأ، وهذا المنكر لن يساعدك على شىء.

أحـــمـــد : لا يهدأ إلا عديم الاحساس. كيف أتحمل ما يجرى إذا لم أشرب !

مـــــروان : **(محتداً)** قلت لا أريد أن تشرب هذا المنكر فى بيتى. إذا كنت غاضباً إلى هذا الحد، ولاتستطيع أن تتحمل مايجرى، فاذهب إلى القلعة، وقاتل مع أهلها.

أحـــمـــد : أأنت أيها الخَرِع من يطلب منى القتال ! تعالَ نذهبَ معاً إن كنت رجلاً.

خـــديجـــة : لا.. زوِّدتها يا أحمد. مروان يريد مصلحتك.

مـــروان : اخزِ الشيطان.. عار علينا أن نتشاجر.

أحـــمـــد : هل يروقنى الشجار مع واحد مثلك ولدتَ صغيراً وستظل صغيراً.

مـــروان : اخرج من بيتى.

أحـــمـــد : وأنت يا خديجة.. ماذا تقولين ؟

خـــديجـــة : تجاوزتَ الحد يا أحمد.. أنا أيضا، لا أريد أن يدخل هذا المنكر إلى بيتى.

أحـــمـــد : ليكن.. سأدعكما تتمرغان فى الذل والبحث عن الأمان. التتار يدخلون المدينة، وصهرى العزيز يخفى الحرير، ويتدرب على لحس الطيز.

(يخرج أحمد، بينما يتبادل مروان وخديجة نظرات مشدوهة، تقترب خديجة، وتمسح بحركة حنونة على شعره)

خـــديجـــة : أرجوك لا تزعل.. إنه دائما متهور، ودمه فائر.

مـــروان : لم أزعل.. ولكنى خائف عليه. سيهلك نفسه إذا استمر على هذا النحو. ساعديني. أين نخبيء الحرير ؟

خـــديجـــة : سنوزعه فى أكثر من مكان.

مـــــــروان : سيكون ذلك أفضل.

(طرق على الباب)

صـوت امـرأة : يا جارة .. ألديك حناء ؟

خـــديجـــة : (من وراء الباب) نعم.. لدى قليل منها . أتريدين ؟

صـوت المرأة : أأنت وحدك فى البيت ؟

خـــديجـــة : لا.. رجلى هنا.

صـوت المرأة : طيب.. المهم أن تخضّبى اليوم بالحناء.. لا تؤجلى ذلك إلى الغد. عندما يذهب رجلك. سأتى وأخبرك كل شىء.

مـــــــروان : ماذا يعنى هذا !

خـــديجـــة : لاأدرى..

مـــــــروان : وما المانع. ! نعم، خضّبى. من أجل البشارة، يجب أن تخضّبى. وهذه الليلة..

(يقترب منها، يضمها، ثم يتهاوى ويضع وجهه على بطنها، فيما تتلاشى الإضاءة)

وفى ٢٣ منه، خرج الوفد إلى تيمور، وكان بينهم ابن مفلح وابن النابلسى، وابن العز، ومحمد بن أبى الطيب، ودلامة التاجر، وقد حملوا معهم القماش، والفرو، والشواء، والحلواء، وكل ما يُهدى، من كل صنف تسعة على عادتهم. وقالوا إن التقدمة أعجبت تيمور، وإنه كتب أماناً لأهل دمشق جاء فيه، «فليعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم، وأموالهم، وحريمهم، واتفقوا أن يستخرجوا له من أهل دمشق ألف ألف دينار، وأن يحملوا إليه كل ماتركه السلطان وعساكره من أموال، ومماليك ودواب. وقد أكثر الوفد من الثناء على تيمور، والكلام على محاسنه وفضائله.

وفيه أيضا، أصاب نساء دمشق، مس الخضاب بالحنّاء، فكل امرأة أو بنت أرادت أن تخضب. وفُقِدت الحنّاء من الأسواق، وجرت فى بعض المحلات عراكات.

وسألت عن السبب، فعلمت أن عاتكة

الباعونية رأت فى المنام أنه جاءها ملك الجان. عمود من الدخان ظل يترجرج ويتلوى حتى جمد فإذا هو جنّى أطول من مئذنة الجامع، وقال لها : لاترتعبى منى، بل ارتعبى إن لم تفعلى ما آمرك به. قولى لبنات ونساء الشام أن يخضّبن بالحناء، وإلا جرى عليهن ما جرى على نساء حلب من جند تيمور، ثم لمس صدرها، وابتعد متلاشيا كأنه غيمة. وكان هذا سبب تزاحم النسوان على الحنّاء. والله علام الغيوب.

وفيه، هطل مطر خفيف.

وما زال بردى يجرى على العادة.

(تتلاشـــــى الاضـــاءة)

تفصيل (٨)

(دار ابن خلدون فى المدرسة العادلية، ابن خلدون يملى، وشرف الدين يكتب بشيء من الضيق، كما أن على وجهه أمارات امتعاض لا يحاول اخفاءها).

ابن خلدون : ومدَّ يده إليَّ فقبلتها، وأشار بالجلوس، فجلست حيث انتهيت، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار، فأقعده يترجم ما بيننا، ففاتحته، وقلت أيدك الله ! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة، أتمنى لقاءك، فقال: وما سبب ذلك ؟ فقلت: أمران.. الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف، فإنى من أهل العلم.

شرف الدين : **(يضع الريشة باحتجاج)** ألست يا سيدى، من يقول: إن من أسباب وقوع المؤرخين فى الكذب، التقرب لاصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر ! أيمكن أن يقال عن جزار، وقاطع طريق، إنه أعظم ملوك الدنيا منذ آدم.

ابن خلدون : ما خطبك يا شرف الدين ! إن لجاجك بدأ يضايقنى

فعلاً. أتظن أنى أغفل عن هذا النقص، وأنا الذى فندت أخطاء المؤرخين وأكاذيبهم ! هذه مسودة، وهناك جملة ناقصة. أتريد أن تعرف ما هى هذه الجملة ؟

شرف الدين : وما هى هذه الجملة يا سيدى ؟

ابن خلدون : (بحدة) هذه الجملة هى، ودوّنت فى نفسى كلاماً أخاطبه فيه، وأتلطف بتعظيم أحواله وملكه، ولكنى فضلت أن أضمر العبارة لأنى لا آمن أن تقع هذه الأوراق فى يد أحد من أمرائه أو رجاله. ومع هذا يجب ألا تنسى أن دول الشرق كلها ركعت أمام سطوته وخضعت لسلطانه. لدى عمل كثير، وأرغب ألا تقاطعنى. أين وصلنا ؟

شرف الدين : فإنى من أهل العلم..

ابن خلدون : وأما الأمر الثانى مما يحملنى على تمنى لقائك، فهو ما كنت أسمعه من المنجمين، والأولياء بالمغرب عن ظهور ثائر عظيم فى الجانب الشمالى الشرقى يتغلب على المماليك، ويقلب الدول، ويستولى على أكثر المعمور. وقد أكد لى الخطيب أبو على بن باديس،

وكان ماهراً فى هذا الفن، أن أخبار هذا الثائر ستنتشر عام سبعمائة وأربعة وثمانين. وكتب لى بمثل ذلك الطبيب. ابن زرزر اليهودى. أما شيخى، إمام المعقولات محمد بن الآبلىّ، فكان يقول متى سألته عن ذلك : أمره قريب، ولا بد لك إن عشت، أن تراه. وقد سره كلامى، فتبسط معى فى الحديث، فقال لى : وأين مولدك ؟ فقلت : بالمغرب الجوّانى . فقال لى : وما معنى الجوانى فى وصف المغرب؟ فقلت : الداخلى أى الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامى من جنوبه، فالأقرب إلى هنا يدعى برقة وافريقية، أما المغرب الاوسط فانه تلمسان، والاقصى هو فاس ومراكش وهو معنى الجوانى. فقال: لا ينفعنى هذا، وأحب أن تكتب لى بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها، وجباله وأنهاره، وقراه وأمصاره، ومسالكه حتى كأنى أشاهده. فقلت : يحصل ذلك بسعادتك.

شـــرف الدين : (واجماً) أتنوى فعلاً أن تصف له المغرب ومسالكه ؟

ابـن خـلـدون : نعم.. وسأبدأ العمل فوراً. هاتِ القرطاس وحضّر لى كراساً.

شـــرف الدين : ولكن هل تقدّر ياسيدى، خطورة عملك هذا !

ابـــن خـلـــدون : وما خطورته ! إنه عمل علمى، وإنى خير من يؤديه.

شـــرف الدين : أتستخفّ بى يا سيدى ! كيف يمكن أن تعده عملاً علميا ولا شيء آخر !

ابـــن خـلـــدون : وماذا يكون إذن ؟

شـــرف الدين : أأنا من سيشرح لك ماذا يكون. ! أأنا من يدلك على دلالته ومغزاه. ! إنك تقدم له ياسيدى، المخطط الذى يحتاجه لغزو بلادك.

ابـــن خـلـــدون : إذا كان سيغزو المغرب، فإنه لن يعدم وسيلة، وحوله ما حوله من الخبراء والكشافة لمعرفة مسالك المغرب، وأمصاره.

شـــرف الدين : ولكن هذا لايبرر أن تساعده فى هذه المهمة. أن تتواطأ معه، وتقدم له البلاد عارية، ومكشوفة. هذه يا سيدى، وكنت أتمنى أن يُقصّ لسانى قبل أن ينطقها، إن هى إلاّ خيانة.

ابـــن خـلـــدون : أقْصِرْ، وإلاّ جفوتك. تيمور نفسه يكلفنى عملاً، فهل أستطيع أن أقول له لا! وهو فى النهاية، عمل علمى، والكراسات التى سأعدها لا تملك جيوشاً ومدافع، ولاتستطيع أن تنظم غزواً أو قتالاً.

شـــرف الدين : هذه الكراسات العلمية ستكون الدليل الذى يقود العساكر، وينظم غزوهم.

ابـــن خـلـــدون : إنك تخيبّنى ياشرف الدين. لن تغدو عالماً إذا ظلت تكبلك التوجسات والوساوس.

شـــرف الدين : وهل يقتضى العلم أن أفقد احترامى لنفسى ! وهل يقتضى العلم أن أتملق وأخدم كل سلطان مهما انحطت خصاله. ! وهل يقتضى العلم أن أبيع أهلى وبلدى لقاء منصب أو وجاهة. ! فى القاهرة لك وطن، وأهل، وأصدقاء، وفى المغرب لك وطن، وأهل، وأصدقاء. فهل يمكن أن تتنكر لهم جميعاً، وأن تقدم للعدو المخطط الذى يحتاجه، كى يخرب الاوطان، ويدمر الامصار، ويهلك الأهل والاصدقاء ! هل تتحمل يا سيدى أن تمشى فى ركابه وهو يغزو القاهرة، وتونس، وتلمسان وفاس ؟

ابـــن خـلـــدون : أتريد منى أن أذرف الدموع ! ليست لدى دموع. وهذه البلاد التى تنوح عليها مهترئة، ومغزوة بلاغزو. هل أتحمل السير فى ركاب تيمور. نعم.. ولم لا! أريد أن أعرف وأن أسجل. أريد أن أستكمل خبرتى، وأن أزيد علمى إتقاناً واكتمالاً. لقد سَرت فى ركاب

أمراء وسلاطين لايستحقون أن يكونوا جزمة لتيمور. ولو حصرت نفسى فى الوساوس، وهذه التّرهات العاطفية لما راكمت خبرة، ولما وضعت علماً لم يسبقنى إليه إنسان فى الخليقة.

شـــرف الدين : إنك تجعلنى أخاف من العلم. هذا العلم البارد الذى يبرر كل وسيلة، ويلتقط مقولاته من خراب أوطانه، ومذابح قومه وأهله. هذا العلم الذى لايبالى بالأنين، والذى يحتقر الدموع، ويتورط بالخيانة دون وسواس. هذا العلم ياسيدى، لانحتاجه، ولايلهمنا إلا الأسى والخوف.

ابـن خـلـدون : متى تدرك أيها الشاب، أن العلم هو العلم، وأن النعوت وتحيزات الاخلاق تفسد العلم، وتملؤه بالضلالات.

شـــرف الدين : لا أريد علما هو العلم إذا كان لايشغله مصير وطنى، وشعبى، ومستقبلى. أعتقد ياسيدى أن علينا أن نفترق.. ما تعلمته منك كثير، وإنى اعترف لك بالجميل، لكنى أعتقد أن علىّ أن أسلك طريقا أخرى فى هذه الحياة.

ابـن خـلـدون : ماذا تعنى بالافتراق ؟

شرف الدين : سأحمل أغراضى، وأغادرك ياسيدى.

إبن خلدون : إلى أين ! ومن يحميك فى هذه المدينة ! لاتكن غراً ياشرف الدين، وهذا الجدال لم يضايقنى، ويمكن أن ننساه.

شرف الدين : (وهو يعد أمتعته)
لا يا سيدى.. لن أستطيع أن أنساه، وعلى كل كانت الفكرة تراودنى وأنا أنتظرك فى معسكر تيمور. سأغادر المدينة وأنضم إلى أهل القلعة.

ابن خلدون : القلعة. ! هل أنت مجنون! حين كنت فى حضرة تيمور، استدعى المهندسين والقواد ووضعوا خطة لاقتحام القلعة وتدميرها.

شرف الدين : سمّنى غبياً أو أحمق. أفضل أن أموت معهم على أن أبقى فى المدينة.

ابن خلدون : لا تكن متهوراً. مهما كان فأنا مسئول عنك.

شرف الدين : أعتقد أنى بلغت سن الرشد ياسيدى. وذهابى لن يؤثر عليك، ستجد كثيرين يتمنون خدمتك..

ابن خلدون : أتحدث من أجلك، ولا أفكر الآن بالخدمة.

شرف الدين : سأتدبر أمرى (يباعد بينه وبين دوره) ماذا سيقول عنك التاريخ يا سيدى ؟

ابن خلدون : (مباعداً بينه وبين دوره) لن يذكر التاريخ إلا العلم الذى أبدعته، والكتاب الذى وضعته. أما هذه الأحداث والمواقف العابرة، فلن يذكرها أو يهتم بها الا موسوس مثلك ، ومثل كاتب هذه الرواية.

شرف الدين : والآن وداعاً يا سيدى.

(يخرج شرف الدين، يظل ابن خلدون، واجماً وساهماً خلال لحظات قصيرة، ثم ينهض فجأة، ويأتى بالقرطاس، ويبدأ الكتابة)

ابن خلدون : فى وصف بلاد المغرب..

(تتلاشي الإضاءة)

المنمنمة الثالثة

آزدار أمير القلعة

أو

المجزرة

تفصيل (١)

(فى الجامع الأموى، أمراء تتار وعساكر يقصفون فى الجامع، ومعهم بعض بنات الهوى. يقف ابن العز على منبر الخطابة يلقى خطبة الجمعة، أفراد قلائل من المصلين يبدون فى حالة ارتباك، يختلسون النظر إلى التتار، ويلزّون بعضهم على بعض، ثم ينسحب أفراد منهم خلسة من الجامع)

ابن العز : وأوصاكم الله بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة أولى الامر منكم. وطاعة أولى الأمر من الإيمان، فلا تجادلوهم، ولا تخالفوهم، ولاتكونوا كالسفهاء والمستكبرين، فتحق عليكم اللعنة، ويحق عليكم غضب الله.

وبعد الطاعة أوصيكم بالوفاء. فإن المسلم إذا أبرم عقداً، يجب أن يحترمه. وإذا أعطى عهداً، يجب أن يلتزمه. ومن حقيقة الإيمان أن يكون الانسان عند الكلمة التى أعطاها، والعهد الذى قطعه على نفسه. إن الاسلام يوصى باحترام العقود، ويأمر بإنفاذ الشروط التى تضمنتها. وفى الحديث «المسلمون عند

شروطهم». وقد بيّن الله عز وجل أن الغدر ينزع الثقة، ويثير الفوضى ويمزق الأواصر فقال: «ولاَتَكُونوا كَالَّتى نَقَضتْ غَزْلَهاَ مِنْ بَعْدِ قُوَةٍ أَنْكَاثاً» وقال سبحانه وتعالى: «وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاَنَ مسئولا» فعلينا الوفاء بالعهد الذى عاهدنا، وعلينا تنفيذ العقد الذى أبرمنا، لأن الوفاء واجب، ولأن فى الوفاء نجاتكم ونجاة أبنائكم وأحفادكم.

(يرتفع صخب الامراء، ويكرعون الخمر بكثير من المجون والفجور)

ابن العـــــز : **(يبدو عليه الحرج فيسرع فى إنهاء خطبته)** اللهم أَصلحْ لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، لاتدع لنا ذنبا إلا غفرته، ولاهماً إلا فرجته، يا أرحم الراحمين. اللهم وفق وبارك سلطاننا محمود قان.

أصـــــوات : آمين.

ابن العـــــز : اللهم وفّق الأمير تيمور، وافتح له على العبادة . اللهم انصره على أعدائه.

أصـــــوات : آمين.

التـــتـــار : (بأصوات ثملة ومشوشة) أمين.. ايمين .. آمن.

ابن العـــز : اللهم اجعل التوفيق حليفه كيفما اتجه، وكيفما سارت خطاه. اللهم وسع ملكه، واجعل المشرق والمغرب بستانه. اللهم أضعف أعداءه وبدّد عزيمة من يقاومه. اللهم ثبت أمر ولى العهد محمد بن تيمور.

أصـــوات : آمين.

التـــتـــار : (صيحات استحسان) آمين.. عظيم.. شيخ فهيم..

ابن العـــز : اللهم أكثر عليه الخير، واجعل السعد نجمه، واليمن طالعه. اللهم وفقهم جميعا إلى ما فيه خير العباد والبلاد.

(تعتمات آمين وصيحات استحسان. وفيما ينسلّ المصلون خارج المسجد، يأتى أحد الأمراء متطوحاً وبيده إبريق فضى مليء بالخمر، يمد يده إلى ابن العز ويجره عبر الجامع إلى مجلسه)

(تتلاشى الاضاءة)

تفصيل (٢)

(ريحانة قرب باب الدار، تحمل صرة مليئة بالطعام، وتتلفت حذرة)

صوت شعبان : (يتناهى مقتربا) يمّه.. يمّه.. يمّه.. جوعان.

(تفتح ريحانة الباب، وتوميء إليه. يقترب، ينظر إليها بدهشة، تمسكه بذراعه. وتجره إلى الداخل، ثم تغلق الباب).

ريحانة : (تتكلم ببطء شديد وأحيانا تستغرق وقتا فى البحث عن الكلمة)

هل أنت جوعان.. ؟ (شعبان يحملق فيها بلهفة وانفعال) خذ. حملت.. طعاماً كثيراً.. (تفتح الصرة وتبدأ بتقديم بعض الفطائر، يمسكها شعبان بحركة آلية، ويضعها فى كيسه مواصلاً حملقته الملهوفة) كلْ.. هل.. تريد.. أن أطعمك.. بيدى ؟

شعبان : (بصوت مفجوع وخافت) يمّه...

ريحانة : سأكون.. أمك.. هل.. هل. تذكر.. السفر جلة.. كانت أطيب.. فاكهة.. ذقتها.. فى.. حياتى.. (تأخذ شيئا من الطعام، وتضعه فى فمه، يأكل بصورة آلية، بينما تبدأ الدموع تتساقط من عينيه)

لماذا .. تبكى. ؟

شـــعـــبـــان : يمّه.. يمّه.. تتر..

ريـحـــــــانـة : كلهم.. تتار.. يا.. شعبان.. قومنا.. تتار.. والتتار.. تتار.. كلهم تتار. ونحن.. أنا.. وأنت.. لن تَفْرِقَ علينا.. ذبحونا.. ولن.. تَفْرِقَ.. علينا.. كلهم.. كلهم.. تتار.. وأنا.. وأنت.. غريبان...

شـــعـــبـــان : (وهو يشهق بالبكاء) يمّه..هاتى بزّك يمّه..

ريـحـــــــانـة : أنت.. فقدت أمك.. وأنا.. فقدت.. أبـ... أبـ.. أبى.. باعنى.. أبـ... أبى واختفى.. لست.. زعلانة.. منه..

شـــعـــبـــان : (بحنان) يمّه..

ريـحـــــــانـة : (تمسك رأسه برفق وتسنده إلى صدرها) تعال.. ارضع.. كلهم.. كلهم تتار.. وأنا.. وأنت.. غريبان.

(شعبان يدس رأسه فى صدر ريحانة، ريحانة تمسح على شـعـره بحنان فـيـمـا تتـلاشى الإضاءة).

تفصيل (٣)

(ركن منزوٍ على أسوار القلعة. أمير القلعة آزدار ومعاونه شهاب الدين) .

شهاب الدين : أرجوك أيها الامير أن تتوخّى الحذر. لا يجوز أن تظل فى مقدمة الأسوار. البارحة لولا تروس الرجال، لغربلتك النبال.

آزدار : هل تريد أن أختبىء فى الديوان! كيف أقود الرجال إن لم أتقدمهم فى أوقات الشدة والخطر !

شهاب الدين : لاتحتاج جدارتك أو جسارتك لتأكيد، ولو أصابك مكروه، فستقصم ظهورنا جميعاً.

آزدار : دعنا من هذا.. نحن الآن جسد واحد، وكلنا مقاتلون دون درجات أو مراتب. لماذا تظن أنهم أوقفوا هجومهم.!

شهاب الدين : لعلها الخسائر الفادحة التى تكبدوها. ألم ترهم كيف تزايد سعارهم آخر النهار! كانوا يدوسون على قتلاهم ويندفعون تحت وابل النبال آملين أن يصلوا إلى حافة الخندق. أعتقد أنهم يدرسون الآن خططاً بديلة.

آزدار : أدخلوا أعداداً كبيرة إلى المدينة، وأخشى أن يتحولوا

إلى الهجوم علينا من الداخل، من منطقة الجامع وباب الجابية.

شهاب الدين : ذات يوم، اقترحت عليك أيها الامير..

آزدار : (مقاطعاً) أعرف.. أعرف.. ولكنى لم أجد الاقتراح عملياً. إن قواتنا لاتكاد تكفى للدفاع عن القلعة فمابالك بالمدينة ! وعلى كل هذا أمر فات. كيف حال الجرحى ؟

شهاب الدين : أكثرهم سيعود إلى الاسوار غداً أو بعد غد. إن ابنة التاذلى بحميّتها وبراعتها تداوى الجروح، وتسكن الألم كأنها سحر، أو كأنها نعمة ربانية.

آزدار : رحم الله والدها. كنت أود لو تصون نفسها، وتلازم مساكن الحريم، ولكن دم التاذلى يسرى فى عروقها. رفضت الانزواء مع الحريم، وأصرت على أن تشارك فى هذا الأمر. هل راقبت المصرى جيدا ؟

شهاب الدين : نعم.. ولم أجد ما يشوبه. إنه لايهدأ ولايستقر، ينتقل بين الرجال خطيباً، ومحدثاً، يقوّى عزائمهم، ويؤجج غضبهم، وفى اللحظات الحرجة يشاركهم القتال بما يستطيع دون خوف أوحذر.

آزدار : خفت أن يكون مدسوساً. بدا لى غريباً أن يترك

معلمه، وأن يأتى ليخبرنا مايدبره تيمور، ويطلب الانضمام إلى مقاتلينا.

شهاب الدين : إنه يشعر إزاء معلمه بالخيبة والمرارة. حكى لى عن الذلّ الذى أحسه حين كان ينتظر معلمه فى معسكر العدو. وكيف أدرك أن الحق لايمكن أن يكون متعدداً، وأن عليه أن يختار مصيره بنفسه. لا.. إنه شاب عظيم الهمة والشهامة، وصارت له فى قلوب الرجال مودة ومحبة. ولاأدرى.. لماذا يتردد الأمير فى الإفراج عن جمال الدين بن الشرائجى - أنا متأكد أنه راغب فى تعبئة الرجال، والمشاركة فى القتال.

آزدار : لاأستطيع أن أفرج عن رجل اتهمه التاذلى وسائر العلماء بالكفر والزندقة.

شهاب الدين : فى الظلامة التى رفعها، لاشىء ينمّ عن الكفر. إنه ينذر دمه للجهاد ضد التتار، فلماذا نحرمه الفرصة! بل سأقول أكثر من ذلك.. لدينا فى سجن القلعة مايربو على الخمسين رجلا فلماذا لانخيرهم بين القتال والبقاء فى السجن ! أعتقد أن معظمهم سيختارون القتال وباندفاع، وسيحاولون أن يثبتوا أنهم جديرون بالحرية، وأنهم غيورون كالآخرين على كرامة الأمة.

آزدار : نحن ياشرف الدين رمز النظام، وقلعته الأخيرة. وإن ألغينا السجن، وتغاضينا عن العقوبات، إنما نهدم النظام، فى جوهره ومن داخله، نحن الآن الدولة السلطانية. والدولة ينبغى أن تحافظ على أساسها ونظامها فى أوقات الحرب. ما قيمة صمودنا إذا هدمنا الحدود، واعتمدنا على المعارضين والمجرمين. كيف يمكن أن أضع إلى جوار هؤلاء المقاتلين المفعمين بالولاء والشجاعة، رجالاً ملوثين بالدسائس والأطماع. رجالاً متهمين فى ولائهم وفى نواياهم. لا.. سيفقد قتالنا كل معنى إذا دمرنا نظامنا من أجل القتال. سيبقى السجن سجناً، وسيبقى السجناء سجناء، ولن يحمى هذه القلعة إلا رجالها الأوفياء.

شهاب الدين : أحياناً لاأفهمك أيها الامير. إنى اتساءل ما الذى بقى من هذا النظام الذى تتمسك بحرفيته بعد ذهاب السلطان، وهروب العساكر السلطانية ! هل يمكن أن يكون كل منا، يقاتل من أجل هدف مختلف. ؟

آزدار : ما الذى ترمى إليه ؟

شهاب الدين : سأشرح لك كيف أرى الامور. نعم.. إنى معجب بك،

وإنى اشاطرك الرأى بأن القتال قدرنا المحتوم. ولكن يراودنى الأمل بأننا نقاتل لكى نبتكر نظاماً جديداً، لا لنحافظ على نظام نعرف جميعاً أنه تداعى وانهار.

آزدار : إننا النظام.. وإننا نقاتل لكى نبرهن أن النظام لم يتداع، وأنه قادر على الصمود والبقاء.

شهـاب الـدين : أرجو أن يتسع صدر الامير، وأن يقبل اختلافنا فى هذه المسألة. طبعاً كلانا يقاتل دفاعاً عن شرف هذه الامة. ولكن يحق لى أن أحلم بأن نظاماً جديداً، سيولد من مخاض هذه المحنة.

آزدار : لايدرى أى منا ما الذى سيولد من هذه المحنة. ولكن. لا أتخيل أن يقاتل المرء من أجل دولة فى الغيب. إنى أقاتل من أجل الدولة التى أنتمى إليها. الدولة التى أعطتنى مركزى، وحددت لى مسئوليتى.

شهـاب الـدين : ليكن.. لا يهم اختلافنا. كم كان يود المرء لو أن هذه الدولة وهذا النظام، يستحقان قتالا.

آزدار : هذه شكوك خطيرة قد تؤدى إلى التخاذل.

شهـاب الـدين : لا.. إن الامة شىء وإن الدولة أو النظام شىء آخر. إنى أستغل رحابة صدرك، وأصارحك أيها الامير أنى أقاتل من أجل الامة لا من أجل دولتها أونظامها

آزدار : أخشى يا شهاب الدين أن يأتى وقت أتلفت فيه فلا أجدك إلى جوارى.

شهاب الدين : معاذ الله أيها الامير. لن تفتقدنى ما دمت حياً. والرجال لايحتاجون إلى الأيْمان لتوكيد عهودهم.

آزدار : هذا أملى فيك. ولن يؤثر علينا اختلاف فى النظر أو الرأى.

(يأتى شرف الدين راكضاً ولاهثاً)

شرف الدين : سيدى الأمير.. بدأ التتار يبنون برجاً مقابل الأسوار.

آزدار : إذن هذه هى خطتهم.

شرف الدين : عبأ الرجال المكاحل والنفاطات، ويريدون أن يرموا عليهم.

آزدار : لا.. ليس الآن. هيا بنا يا شهاب الدين.

(يمضون جميعا على عجل، وتتلاشى الإضاءة)

تفصيل (٤)

مـؤرخ قـــديم : فى أوائل جمادى الآخرة، صار عسكر تيمور يدخل إلى المدينة، ويخرج منها كما يشاء.

وفى ٦منه، خطب القاضى محى الدين بن العز بالجامع الأموى، ودعا للسلطان محمود قان ثم للأمير تيمور ثم لولى العهد محمد سلطان. وقد أعطى ابن العز قضاء الحنفية، ونظر الأوقاف، وأخذ المعاليم، وزكاة الأيتام.

(يباعد المشخّص بينه وبين دور المؤرخ)

يبدو أنه من العسير، أن نجعل مؤرخنا يخلف قليلاً من برودة وحياده. ولكن هل نستطيع نحن أن نكون باردين ومحايدين، ونحن نتهيأ لمشاهد الرعب القادمة . لن نزيف مقالة المؤرخ، لكن لانستطيع أن نسرد الوقائع دون شىء من التعاطف وقليل من الحس الفاجع.

(يعود إلى دوره)

وفيه، كَمُل المال الذى فرضه تيمور، وهو ألف ألف دينار، فحمله ابن مفلح وأصحابه إلى تيمور، ووضعوه بين يديه، فلما عاينه، غضب

غضبا شديداً ولم يرض به، وقال إن المبلغ الذى طلبه هو عشرة آلاف ألف دينار. ولم يجد ابن مفلح بدّا من الالتزام به.

وعادوا إلى البلد، وفرضوه على الناس، فجبوا أجرة مساكن دمشق كلها عن ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان، من ذكر وأنثى، وحر وعبد، وصغير وكبير بعشرة دراهم.

(مشاهد متلاحقة حول تحصيل المال وما كان يجرى على الناس. يمكن أن يستخدم فيها التشخيص وخيال الظل أو أية وسيلة أخرى مناسبة).

ابراهيم الملكاوى وياسمين.

ابـــراهـــيـــم : (وهو يمد لها كيساً صغيراً) حملت لك بعض المال الذى ادخرته.

ياســـــــمين : لم يبق شيء. تصور.. ألزمونى أن أدفع عن جمال الدين وهو فى سجنه. بعت مصاغى، وكل ما فى بيتى، وأنا وحيدة فى هذه المحنة.

ابـــراهـــيم : لا.. لن تكونى وحيدة. وهذا المال سيساعدك على تجاوز هذه المحنة.

ياســـــــمين : وأنت.. كيف ستدبر أمرك !

ابـــراهـــيم : لاعليك.. مازالت لدىّ بقية.

ياســـــــمين : لا أريد أن تؤذى نفسك.

ابـــراهـــيم : لا.. لاتقلقى علىّ . خذيها فقط.

ياســـــــمين : (وهى تتناولها) أمازلت غاضباً وحزيناً ؟

ابـــراهـــيم : لندع ذلك الآن.

ياســـــــمين : أشعر بالوحدة. إنى خائفة، ولا أعرف كيف أحفظ نفسى فى هذه الأيام المظلمة

ابـــراهـــيم : لا.. أريدك أن تكونى شجاعة.. وأريد أن تحافظى على نفسك.

ياســـــــمين : ألا تبقى

ابـــراهـــيـــم : حافظى على نفسك (يخرج)

يـاســـــمـين : ذاك فى السجن، وهذا يتركنى، وأنا.. كيف أحافظ على نفسى !

مـــؤرخ قـــديم : وبدأ استخلاص الأموال والعقوبة. وعمّ العذاب جميع الناس، وكان ابن العز وابن مفلح قد جمعا حولهما أراذل الناس، كصدقة الجابى، وابن التكريتى، وتفرقوا حارات دمشق، وتباروا فى الظلم والقسوة. وكانوا يأتون بالواحد، ويقولون : «عليك عشرة الاف»

ابن العز، ابن مفلح، حراس، ومشنقة.

ابن العـــــز : ستدفع يعنى ستدفع.

الـــــرجـــــل : هل أقص من لحمى ! أقسم إنى لا أملك شيئاً.

ابن العـــــز : بعْ مالديك.

الـــــرجـــــل : وهل بقى ما يُباع ! لم يبق إلا البيت، ولا أستطيع أن أبيعه.

ابن مـــــفلح : لا تضيع وقتنا. كلّ هذا لايفيد.

الـــــرجـــــل : لن أدفع.

ابن العـــــز : اشنقوه.

(يندفع حارسان ويمسكان بالرجل، ثم يرفعانه إلى المشنقة... أَنَّة، وخوار مفزع)

مـــؤرخ قـــديم : وبدا من الناس فى حق بعضهم بعضاً، من المرافعات أنواع قبيحة.

وبدا وكأن الخير مات فيهم، وفاضت الشرور فى نفوسهم، فجروا بالفساد بعضهم على بعض، وصار كل منهم يتقرب من الذين يستخلصون الأموال بالنميمة على الآخرين. وكل واحد عنده ضغينة من قريب أو جار، استغل الوقت لكى ينتقم منه، ويعرضه للعقوبة والبهدلة.

(مروان ودلامة).

مـــــروان : أعرض عليك قطعاً من الحرير نسجتها بروحى . إنها قطع لن تجد لها مثيلا فى دمشق.

دلامـــــة : يا مروان، ياحبيبى.. أنا لا أعرف أن الروح تنسج. هذه قطع من القماش، ولن أدفع فيها إلا السعر الذى تعلمه.

مـــــروان : إنك تبخسنى حقى. إنك لاتدفع عشر ثمنها.

دلامـــــة : وأنا لاأجبرك على البيع.

مـــــروان : أنت تعرف حاجتى.

دلامـــــة : كل الناس فى هذه الأيام محتاجة.

مـــــــروان : طيب زدها قليلاً.

دلامـــــــة : لن أزيد درهماً واحداً.

مـــــــروان : يا الله.. ما الذى حدث لنا ! ألم تبق شفقة ! ألم تبقَ نخوة ! إنك تنهبنى يا دلامة.

دلامـــــــة : اسمع.. لست قاضياً لك. انظر.. هناك كثيرون ينتظرون للبيع والشراء. أنا لا أجبرك على شىء. تريد أن تبيع، أهلاً وسهلاً. لاتريد أن تبيع، مع السلامة.

مـــــــروان : ماذا أفعل ! إنى أبيع يا دلامة.. إنى أبيع...

المـــــــؤرخ : وصارت العروض تباع بأبخس الأثمان، وفقد الناس القوت.

ومن يوم هروب السلطان، لم يرَ أحدٌ خبزاً فى فرن إلا إذا كان بيتياً . ولا يوجـــد القمـــح والشعـــير إلا بندرة، فإنهم لما تسلّموا البلد، ختموا على جميع المحاصيل التى بالمدينة للغائبين والحاضرين. وكان القمح يباع كل كيل بـ «٣٦٠» ثم وصل فى مدة يسيرة إلى «١٤٨٠» للكيل الواحد.

واستمر الأمر على ذلك، ولا يوجد ولايجسر أحد على الاعتراض لئلا يصيبه ما أصاب الشيخ ابراهيم الملكاوى .

(ابن العز، ابن مفلح، حراس، ابراهيم الملكاوى).

ابـــراهـــيـــم : لا يوجد شيء.

ابن العـــــز : يوجد البيت وما فيه.

ابـــراهـــيـــم : لن أدع واحداً منكم ينجّس بيتى.

ابن العـــــز : أنحن أنجاس يا ابن الملكاوى. !

ابـــراهـــيـــم : إنكم أنجس من النجاسة. ياللعار ! أأنتم العلماء الذين وضعوا دمشق وأهلها أمانة فى أعناقكم.! بعتم المدينة، وأجّرتم دينكم، ونفوسكم وهذه العمائم التى تعلو رءوسكم للتتار. بأى وجه تلقون الناس وبأى وجه ستلقون ربكم. !

ابن العـــــز : أتسبُّنا يا ابن العاهرة. !

ابن مـــــفلح : إنك تسعى إلى حتفك يا ابن الملكاوى.

ابـــراهـــيـــم : فى بلد، أنتم رعاتها وأولياء الأمر فيها، الموت عبادة هل أسبكم حقاً ! وهل يُسَبُّ رجال خلوا من الذمة والنخوة والدين. ! بعتم أهلكم من أجل مكسب خسيس، وتتبارون الآن لنيل حظوة عند عدونا.. والله لن تنالوا إلا الازدراء وسواد الوجه فى الدنيا والآخرة (**يدير ظهره لهم، ويدخل إلى البيت**) .

ابن العـــــز : (غاضباً ومزبداً) إحرقوه واحرقوا بيته.. تحركوا.. أوقدوا النار.. أريد أن اراه وهو يشوى..

(يشعل الحراس النار فى بيت ابراهيم الملكاوى) .

أصـــــــوات : يا لطيف...

- بيت الملكاوى يحترق..

- احرقوا بيت الملكاوى..

- ياناس.. حريق فى بيت الملكاوى..

- لا.. هذا لايطاق.

صوت ياسمين : يا إبراهيم. يا إبراهيم.. أعطانى كل شىء وقرر الموت. احترق ابراهيم مات ابراهيم.. لم يبق لى شىء...

مـؤرخ قـديم : واستمر الحال حتى كَمُل المال. وهلك الفقراء، وكَلَت الأغنياء. وبقى الإنسان لايقدر يمشى من الموتى، ولايدفن أحد أحداً.

كل هذا وأمير القلعة ممتنع بها، وتيمور يحاصرها، وقد نصب حولها مجانيق،وحدّافات، ومدافع كثيرة ترمى عليها.

وفيه، هطلت أمطار غزيرة، وزاد الماء فى بردى زيادة كبيرة

تفصيل (٥)

(فى القلعة، سعاد، وشرف الدين وهى تضمد له جرحاً أصابه فى ذراعه)

سـعـاد : أيؤلمك.. ؟ **(يهمّ شرف الدين فى الكلام، ثم يحمر ويسكت)** . لماذا لاتجيب. !

شـرف الدين : أخشى أن تزعلى لو أجبت.

سـعـاد : ولِمَ الزعل. !

شـرف الدين : هذا شعورى.. يداك كالبلسم الشافى.

سـعـاد : هل تتودّد إلىّ !

شـرف الدين : هذا ما شعرت به فعلا.. سكن الألم فجأة.

سـعـاد : ليس الجرح خطيراً على كل حال. اخترق السهم اللحم، ولم يمس العظم. بعد يومين أو ثلاثة سيندمل الجرح. أتعلم.. فوجئت حين علمت أنك جئت إلى القلعة !

شـرف الدين : كان القرار صعباً، ولكن حين اتخذته، شعرت أنى نضجت، وصرت رجلاً.

سـعـاد : هل شجعك وجودى هنا على المجيء ؟

شـرف الدين : لا أدرى.. ربما.. نعم، أكنت أفكر فيك. وكانت خيبتى بابن خلدون شديدة الوقع علىّ .

سـعـاد : أتعلم.. حملّت مجيئك دلالة كبيرة. أيقنت أن التاذلى لم يمت مجاناً.

شـرف الدين : ماذا تقولين ! سيبقى ذكر التاذلى حياً فى الأذهان أجيالا بعد أجيال.

سـعـاد : كم نستطيع الصمود فى رأيك ؟

شـرف الدين : أحرقنا الأبراج الثلاثة التى بنوها، بما احتشد فيها من العساكر. ولم يستطيعوا حتى الآن أن يلمسوا حافة الأسوار.

سـعـاد : وأبراجنا تهدَّم معظمها. والقذائف تنهمر علينا كالمطر الغاضب.. رأيت البارحة مناما غريباً.. كنت فى مدينة ساحلية. لعلها طرابلس أو بيروت، والأرجح أنها بيروت. وكنا محاصرين كحالنا هنا، ولكن الوقت صيف، والشمس ساطعة وحارة. ورأيت طيوراً غريبة تحلّق فوقنا، طيوراً لها هدير، كأنها من فضة أوحديد. وكانت ترمى فوقنا كتلاً نارية مرعبة، تدوّى، وتدمر، ثم وجدت نفسى أصعد إلى سطح مرتفع، وتطلعت حولى، فإذا نحن محاطون بأحياء بنيت على هضاب. وكان الناس كلهم يحتشدون على الأسطحة، ويشيرون نحونا ساخرين وشامتين،

وحضر أبى إلى جوارى، وقال لى كئيباً: «أتعرفين هذه الأحياء ! فقلت له: لا. فأخذ يسمى الأحياء واحداً، واحداً. هذا عرب نعير، وهذا عرب بنى حارثة، وهذا عرب الشام، وهذا عرب مصر والقاهرة، وأولئك من عرب قحطان، وأولئك من عرب أفريقية». كانوا جميعا يتفرجون ولايبالون، وظلّلنا طائر كبير يهدر، وصرخت، ثم صحوت مقهورة وحزينة. كان مناماً موحشاً ومخيفاً.

شـــرف الدين : سبحان الله.. كأن الحق كشف لك الواقع وأحواله ! كثيراً ما أتساءل ، أيمكن أن تتهاوى الأمة إلى هذا الدرك من التبلّد والخذلان ! من العار أن تتحمل هذه القلعة الوحيدة كرامة أمة تترامى على قارتين. إننا نفر قليل يحاول أن يصون شرف البلاد كلها. حين أنظر من الأسوار، وأفكر فى كل هؤلاء العرب، أعجب كيف يستطيعون أن يأكلوا، ويناموا، ويتابعوا لهو الايام، غير عابئين بما نكابد، ونقاسى ! أيظنون أن حصارنا لن يطالهم. ! أم يظنون أننا كبش الفداء الذى سينقذهم ! ستكون الكارثة كبيرة إن لم يتنبهوا من غفلتهم قبل فوات الأوان.

ســـــعـــــاد : أحسب أنك أكثر يأساً وحزناً منى.

شـــرف الدين : لا.. لست يائساً. قال ابن خلدون، ولعله محق، إننا نعيش زمن الاضمحلال. ولكن إذا لم يعمل المرء شيئاً فى مثل هذا الزمن، ففى أى زمن سيعمل. ! سألتِ كم سنصمد ! وأقول لك : إننا سنصمد حتى يتغير شىء فى هذه الأمة، لابد أن يتغير شىء وإلافقدنا حقنا فى الوجود. لاأدرى.. أشعر أن هذه القلعة التى بدأ يشحّ فيها الغذاء والماء، ستكون هى الصيحة التى توقظ الأمة من الغفلة.

ســـــعـــــاد : هل تحبنى.. ؟

شـــرف الدين : يا الله. ! كيف تستطيعين أن تسألى هذه الأسئلة. ؟

ســـــعـــــاد : أتعنى أنى بلا حياء. !

شـــرف الدين : لا.. لا.. ولكنك تفتحين خفايا نفسى بالسهولة التى تفتحين بها كتاباً.

ســـــعـــــاد : لاتدع الماء يتسرب إلى الضماد. واعتنِ بنفسك.

شـــرف الدين : هل تذهبين !

ســـــعـــــاد : سأمر غداً لأبدل الضماد.

(تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفيـه، وقع مطر كثـير جداً مع رعد وبرق، وسـقط برد بقـدر البندق بكثـرة زائدة، حـتى صارت الأرض بيضاء من كثرته. كل ذلك في ساعة واحدة لم يعهد مثلها.

وصـار تيـمور لايهـتم إلا بالقلعـة وحصـارها. وحين أعيـاه الأمـر، طلب القضـاة والأعيـان، وقال لهم: «سـمعت أن في المدينة طريقاً إلى القلعة تحت الارض، فقالوا : «والله ما سمعنا بهـذا ولانعرفـه، فقـال: «تكذبون أنتم وآباؤكم وأجدادكم عـمرهم في دمـشق، ومـا تعـرفون طريقـاً إلـى القلعـة.. أنا مـا أعـرف. إلـى ثلاثة أيام إن لم تبصروا طريقاً أعبر به إلى القلعة، أو ينزل نائبها ويسلّم، عبرت وحاصرت من الداخل. ومـا أقدر أن أرد العسكر عـما تفعل، وتخرب البلد».

وعندمـا عـادوا إلى المدينة، كـانت وجـوههم مسودة من الخوف والكمد واجتمعوا، وضربوا الاخماس بالأسداس، ثم استقر الرأى على أن يرسلوا الشـــيخ شـمس الدين بن النابلسى،

ومـحـمـد بن أبى الطيب إلى نائب القلعـة.
واتجهوا جميعا، ووقفوا تجاه الباب الذى من المدينة، وأخـذوا بالصـيـاح فـدلّوا من القلعـة سرياقاً مـربوطاً بحبـال، ورفعوا ابن النابلسى وابن أبى الطيب.
وبعـد المطر والبَرَد، فـاض المـاء فى بردى، وغمر ما حوله على الضفتين.

تفصيل (٦)

(على أسوار القلعة. الأمير آزدار ومعاونه شهاب الدين، وابن النابلسى ومحمد بن أبى الطيب. حراس).

آزدار : ماذا تبغون . ؟

ابن النابلسى : **(متذللاً ومتصاغراً)** أيها الأمير.. جئنا باسم أهلك وأبناء بلدك، نرجوك أن تحقن دماءهم، وأن تسعفهم على زوال هذه الغمّة.

آزدار : ألم يحقن دماكم الأمان الذى اشتريتموه من تيمور.!

ابن النابلسى : تقلّب علينا أيها الأمير. إنه غاضب جداً، وسيخرب البلد إن لم تشفق علينا.

آزدار : ماذا تجديكم شفقتى . ؟

ابن النابلسى : أقصد.. لاشك أنك بلغت فى البطولة ذروة لن يصلها أمير بعدك، وذكرك سيتغنى به الأحفاد وأحفاد الأحفاد، ولو طاوعتنا وسلّمت الآن، فستضيف إلى الشجاعة مأثرة المروءة.

آزدار : هل جئت تطلب منى الاستسلام. ؟

ابن النابلسى : لن يضير الاستسلام شهرتك، وستنقذ أهلك من

القتل، ويلدك من الخراب.

آزدار : أتريدون أن أشاطركم الخزى الذى تتمرغون فيه ! أهذا ما تطلبونه ! طوال هذا الحصار لم تلتفتوا إلينا، ولم تقدموا لنا أى عون أو تعاطف، ومع هذا تأتون بكل عين وقحة وتطلبون منا أن نستسلم. !

ابن النابلسى : أيها الأمير.. إننا نحمل إليك ضراعة أهلك ومدينتك. وإن قبلت، فستزيّن شجاعتك بحلية إضافية هى الشهامة.

آزدار : ماذا حل بكم. ! هل فقدتم كل حياء.! هل وضعتم جلود مؤخراتكم على وجوهكم.! كيف تطلبون منى أمراً شائنا كهذا.!

محمد : أيها الامير.. إنك تتلاعب بمصير مدينة.

آزدار : أأنا الذى أتلاعب بمصير المدينة أم أولئك الذين تراموا على حذاء العدو، يلعقونه، ويسلمون له أرواحهم وأموالهم.!

محمد : ربما لن يعجبك كلامى، لكن ألم يخطر لك أيها الأمير أن تتساءل عمَّن رمانا تحت قدمى العدو.. تقول إننا بلا حياء، ولكن من الذى قتل حياءنا وبدَّد عزمنا.! أليس هو السلطان الذى تحمل رايته.! أليس هو ذلك

الغلام المشغول بذكَره وخمره، والذى فرَّ بعساكره دون أن يقول لنا كلمة، أو يترك لنا تدبيراً أو خطة.! وأنت.. أنت أيها الامير ألم تقتل حياءنا، وتبدّد عزمنا قبل مجيء السلطان وهروبه الشائن.! ألم تحرمنا السلاح حين طلبناه.! ألم تجعلنا أغراباً فى مدينتنا لأننا نخالفك الرأى، ولاننا لم نكن نوالى هذا السلطان الغلام، وما آلت إليه الدولة السلطانية.! تقول إننا فقدنا الحياء.. ولكنك تنسى أيها الامير أنك وسلطانك من أفقدنا الحياء، ودفعنا من ظهورنا للركوع أمام العدو. حتى هذه اللحظة لى فى سجنك أصحاب وأقارب، وكل ما اقترفوه هو أنهم يخالفونك الرأى، ويرون أن الدولة السلطانية يشلّها الفساد والظلم. ورغم كل شيء جئتك قبل المحنة متطوعاً، وتوسلت أن نتجاوز الخلافات، وأن نكون قبضة واحدة فى الملمّات، فماذا كان جوابك.! سخرت منى، ورميتنى كما تُرمى النواة. لم يكن يهمك إلا رضى سلطانك وطعمة الأمراء حوله.

ابن النابلسى : أقصرْ يا ابن أبى الطيب. جئنا نتوسل ، لانجادل.

آزدار : لا.. دعه يكشف خبائث نفسه.

محمد : أيها الامير.. ماأردت الإساءة، ولكنك ظلمتنا من قبل، وتظلمنا الآن. رميتنا بقلة الحياء، ولكن هل كانت لدينا الفرصة كى نصون حياءنا.!

آزدار : هذه النفوس التى تربت على الدسائس ما كانت لتنفعنى فى شىء. ورجل مثلك يمكن أن يبيعنا للشيطان إذا وجد عند الشيطان منفعة. رجل مثلك لايستطيع أن يحيا إلا فى الغدر والخيانة والتآمر. جئتم تطلبون منى أن أسلِّم، لأن موقف الشرف يفقأ عيونكم الكسيرة، ولأن موقف الشجاعة يقض مضاجعكم الذليلة. إن أمركم لايعنينى، ولن تمسحوا مؤخرة تيمور بقلعتى، كما مسحتموها بالمدينة.

ابن النابلسى : والله لست بارًا بأهلك ومدينتك.

محمد : وما أهمية هذا الشرف الذى تغذيه من لحم قومك ! وما قيمة شجاعة ثمنها شعب ومدينة! لا.. هذه ليست شجاعة، إنها مباهاة عقيمة. كل ما تبحث عنه أيها الامير، هو شئ من التميز حتى ولو كان على حساب جبل من الضحايا. لم تفكر يوماً بنا، ولم يشغلك أمرنا . إنك رجل وحيد استغرقك البحث عن شىء من الصيت، ورضى ذلك السلطان الرقيع.

آزدار : أيها الحراس..

محمد : نعم.. يجب أن تنادى الحراس، فأنا أعريك. إنى أراك عارياً أيها الأمير، وإنى لا أجد فى عريك إلا الانانية والوحدة وجفاف الروح.

آزدار : بل أنا الذى سأعريكم فعلاً. ولن يجد الناس تحت ثيابكم إلا الذل والهوان. أيها الحراس.. جردوهما من ملابسهما..

(يبدأ الحراس تجريدهما من ملابسهما)

ابن النابلسى : **(وهو يقاوم الحراس)** كن حصيفاً أيها الأمير. هذا لا يفعله إلا المُجَّان.

آزدار : ما العمل!! علمتمونا المجون على كبر يا ابن النابلسى.

محمد : عرّيتنا من ملابسنا، أما نحن فقد عرّينا فيك المظاهر والأكاذيب.

آزدار : الآن.. وأنتما عاريان، الآن.. وبعد أن أخرجتَ يا ابن أبى الطيب القيح الذى تخبئه فى صدرك، سأقول لكما كلمات أريد أن تبلغوها أهل الشام. إنى أتحصن فى هذه القلعة، وأكابد هذا الحصار لا لكى أرضى سلطاناً، أو لكى أحمى إمارة. إنى هنا لكى

لايموت الشرف فى هذه الأمة. إنى هنا، لكى لايقال فى قادم الأيام، اجتاح تيمور هذه البلاد ولم يُوجدَ من يقاوم، أويقول لا. إنى هنا لكى أُبقى شيئاً من الكرامة لأطفالكم وأحفادكم، حين يأتى الوقت كى يرفعوا الأنقاض، ويفكروا بالمستقبل. إنى هنا كى أمنع تيمور من بدء المذبحة التى يحضّرها لكم، ووالله ما إن تسقط هذه القلعة، حتى تعمل السيوف فى أعناقكم. أأنا الذى أضحى بالمدينة يا ابن الطيب بحثاً عن صيت أو امارة.. لماذا تظن أن تيمور لم يقتحم المدينة بعد..؟

قل لأهل الشام إن صمود القلعة هو الذى يؤمن لهم هذا السلام المؤقت. وقل لاهل الشام إن الذين يضحون بالمدينة هم هؤلاء الذين تحولوا جلاوزة عند تيمور. هؤلاء الذين كانوا فى النهب وجمع المال أقسى من التتار. هؤلاء الذين باعوا المدينة من أجل بعض المغانم الهزيلة. قل لأهل الشام إن كنت تجرؤ، إن الذى ضحى بالمدينة، وذبح أهلها هم علماء وأعيان يبحثون عن المناصب والوجاهة والغنيمة. ابن العز صار قاضى القضاة، وابن مفلح وزير المال،

وابن أبى الطيب كاتب السر، وابن النابلسى يلملم مكاسب الأوقاف وأموال البرطيل والشفاعة، وكلهم يتسابقون فى خدمة تيمور غير عابئين بما يحل بكم من ويل وشقاء.

قل لأهل الشام إن كنت تجرؤ، ما جئت إلىَّ لكى تنقذ الشام، بل لكى تنال حظوة عند تيمور. قل لأهل الشام سلام عليكم أيها الناس، إن الأمير يشفق عليكم من سادتكم.. وإن الامير سيفعل ما يستطيع كى يؤجّل موتكم.. أيها الحراس.. ردوهما إلى المدينة.

(يضع الحراس ابن النابلسى وابن أبىَ الطيب فى سرياق، ويدلوهما على جدار القلعة).

ابن النابلسى : هاتوا لنا ملابس وأغطية.

محمد : أيها الناس.. انقبوا القلعة.. هاتوا المعاول والفئوس وانقبوا القلعة.

شهاب الدين : **(من فوق السور)** والله إنكم تنقبون قبوركم.

محمد : **(وقد حط السرياق على الارض)** انقبوا القلعة..

شهاب الدين : والله ستنقبون قبوركم لو فعلتم..

(تتلاشى الإضاءة، ويرتفع بعيداً كالصدى صوت شعبان)

شعبان : يمّه.. يمّه.. تتر.. يمّه عطشان.. يمّه هاتى بزّك يمّه...

تفصيل (٧)

(بيت مروان وخديجة، إنهما يتناولان العشاء، ضوء السراج لايبدد العتمة وإنما يملأ المكان ظلالا) .

مـــــروان : (يغرف لقمة من صحن الدبس) هذه اللقمة لك..

خـــديجـــة : لا.. أنا اكتفيت، وأنت لاتكاد تأكل شيئاً.

مـــــروان : أنتِ من يحتاج إلى الغذاء، لا أنا (يمد اللقمة إلى فمها) افتحى فمك.

خـــديجـــة : والله اكتفيت. كل أنت، والدبس يدفّىء فى هذا البرد.

مـــــروان : للدفء.. هناك ما هو أفضل من الدبس.

خـــديجـــة : (ضاحكة) إحذر.. لوثت خدى وذقنى.

مـــــروان : انتظرى.. سأنظف كل شىء. (يقترب منها ويلحس قطرات الدبس حول شفتيها. يتضاحكان، ويتدافعان)

خـــديجـــة : كفى..

مـــــروان : مازالت هناك قطرة.

(طرق على الباب.. يجفلان)

مـــــروان : من يأتينا فى هذه الساعة.!

خـــديجـــة : لاأدرى..

(ترفع الطعام فيما يذهب مروان إلى الباب)

مـــــــروان : من؟

أحـــمـــد : (من الخارج، وصوته مخمور) أنا.. أحمد.. اشتقت لك يا رجل. وأريد أن أسدى لك خدمة.

مـــــــروان : (مترددا) أهناك شيء ضرورى.!

أحـــمـــد : (من الخارج) نعم.. ضرورى جدا.

(يلتفت مروان نحو خديجة كأنه يستشيرها. تهز خديجة كتفيها وكأنها تقول لاأدرى. بعد تردد قصير، يفتح مروان الباب، يندفع أحمد متطوحاً إلى الداخل وأثره يدخل تتريان، يبدو مروان مبغوتاً وكذلك خديجة)

أحـــمـــد : جئت أفكّ عسرك المالى، وأضمن لك الأمان.. ماذا تظن.! أنت دائماً فى البال يا مروان، والدم لايصير ماء. هذان الأميران يريدان حريراً فاخراً. وأنا قلت لهما، هناك رجل واحد لديه ما تريدان من الحرير الفاخر. وهما مستعدان للدفع، انظر.. كل منهما لديه كيس ملآن.

(يحاول أحمد أن يعرض الكيس على مروان، فيدفعه التترى ويرميه أرضاً).

أحـــــمـــــد : يا رجل.. نحن شربنا سوية. والذين يشربون سوية، يت.. يتآ.. يتأخون.

تتـــــرى (١) : **(وهو يلكز رفيقه فيما عيناه تلتهمان خديجة)** إن زوجك جميل أيها الشامي.

مـــــــروان : **(مرتبكاً)** هل تريدان حريراً بالفعل؟

تتـــــرى (٢) : **(وهو يتقدم نحو خديجة)** بعدين.. بعدين..

مـــــــروان : **(يريد أن يعترض طريقه)** انهض يا أحمد.. ماذا فعلت بنا. ! خذهما واخرج.

أحـــــمـــــد : **(وهو يكرع من الزجاجة، وتزداد تعتعة صوته)** لاتخف.. لاتخف.. هما يحبان المرح والمزاح.

(التترى ينحى مروان، ويتقدم حتى يصل إلى خديجة، يمسكها بيديه ويحملق فيها، تتغير ملامح خديجة تحت وطأة الرعب، وينحبس صوتها. إنها تصدر ما يشبه الفحيح).

مـــــــروان : **(وهو يهجم عليه)** اتركها.. اخرجوا جميعاً.. أيها السافل، خذ صحبتك وارحل.

(يحمل التترى خديجة غير عابىء بشىء، ثم يضعها على الفراش. يغدو مروان كالمجنون،

(يسحب من جيب سترته سكيناً ويقفز على التترى، إلا أن التترى الثانى الذى يراقب كل شىء بعين فاحصة، يمتشق سيفه، ويعاجله بضربة تمزق عنقه. تطلق خديجة صرختها المحبوسة، صرخة مفعمة بالرعب والغضب، تتلاحق الصرخات، والتترى يطبق عليها، ويشل حركتها لا مبالياً بشىء)

مـــــــروان : (وهو يتمرّغ على الأرض ويشخر مذبوحاً) أخوك.. لعنة الله.. الجنين.. أمى.. خديجة.. انتهت الحرب.. انتهت الحرب..

خـــديجـــة : مروان !

(يضع التترى يده على فمها)

أحـــمـــد : (ينهض وهو يتلفت بذعر) يارب.. ماذا فعلت.! يارب.. ماذا فعلت..!

(ينسل ويختفى فى العتمة. يغلق التترى الآخر الباب وراءه فيما تتلاشى الإضاءة ببطء شديد) .

مـــؤرخ قـــديم : وفيه، جمادى الآخرة، درّب تيمور عساكره نحو باب الجـابيـة، وحـاصـر القلعـة من داخل المدينة.

ولما بدأوا ينقبون الأسوار، أبدى أهل الشام همة عالية فى مساعدة التتار على نقبها.

وكان ابن أبى الطيب يقودهم، وينادى فيهم «الهمّة يا رجال، اقترب الخلاص»

وكان تيمور قد نصب مناجيق وحذّافات، ومدافع كثيرة، ترمى على القلعة. وكانوا يرمون بالنشاب إلى الأسوار بحيث منعوا أحداً من الوقوف عليها.

وتهدمت أبراج القلعة كلها، والنقب من داخل المدينة شغال.

وفيه، أوحلت الأرض من الأمطار والبَرَد.

وما زال الماء فى بردى يفيض على الضفتين.

تفصيل (٨)

(فى القلعة . شرف الدين وسعاد) .

سـعـاد : انتهى كل شىء

شـرف الدين : (دامع العينين) غَلبنا الأهل والعدو والزمان.

سـعـاد : أين الله يا شرف الدين.!

شـرف الدين : لاأدرى..

سـعـاد : هل تساورك الشكوك مثلى.. ؟

شـرف الدين : لا أدرى..

سـعـاد : ألا يرانا ! كيف تخلَّى عنا، نحن الذين ندافع عن الحق ! كيف تركنا وحدنا دون نجدة أو رحمة ! ألم يَعِدْ أمثالنا بالنصر ! ألم يَعدْنا أنه قريب منا إذا نادينا وتضرعنا ! أيجوز أن يمكّن لتيمور فى الأرض، وأن يهزم فئته التى تقاتل بالعدل، وتدافع عن الحق !

شـرف الدين : لاأدرى..لاأدرى..

سـعـاد : نعم.. لاندرى.. وربما لن ندرى أبداً. قل لى.. هل بحر النيل جميل ؟

شـرف الدين : آه.. كم وددت أن نراه معا ! لا.. لم يعد هناك مكان جميل، ولم يعد هناك جمال.

سـعـاد : وأنا .!

شـرف الدين : لاتجعلى قلبى يتفطّر.

سـعـاد : هل تتزوجنى ؟

شـرف الدين : يارب.. كيف أفهم أسئلتك !

سـعـاد : أفهمها كما هى. إنى جادة.. هل تتزوجنى ؟

شـرف الدين : كيف أستطيع أن أمنّى نفسى. !

سـعـاد : دعك من الذهول. وأجبنى.

شـرف الدين : يارب.. وهل هذا ممكن ! طبعا أتزوجك.

سـعـاد : إذن.. هات يدك (**تمسك يده اليمنى وتضع منديلا على اليدين**) أنا سعاد بنت المرحوم برهان الدين التاذلى أزوّجك نفسى على سنة الله ورسوله.

شـرف الدين : وأنا شرف الدين بن محمود الدسوقى أتزوجك على سنة الله ورسوله. فلنقرأ الفاتحة.

(يقرآن الفاتحة بصوت خافت)

سـعـاد : هكذا.. صرت زوجتك. إننا الآن متزوجان.

شـرف الدين : (**مذهولاً**) هل نخبر أمك وأمير القلعة ؟

سـعـاد : لا.. لن نخبر أحداً. سيكون زواجنا حلماً، أو أقصر من الحلم. غداً حين نسلّم القلعة، لايدرى أى منا ماذا ينتظره.

شـــرف الدين : غداً، سنخرج من القلعة زوجين.

ســـــعـــــاد : ومن يدرى. قد يترمّل أحدنا قبل أن يأتى الغد.

شـــرف الدين : (خائفاً) ماذا تعنين ؟ أعطونا أماناً، ولن يحدث شيء حتى الغد.

ســـــعـــــاد : وما قيمة هذا الأمان ! هل تقبل ياشرف الدين أن تمتد يد تترية إلى جسد امرأتك.

شـــرف الدين : ماذا تخفين يا سعاد. ؟

ســـــعـــــاد : لاأخفى شيئا.. وهذا الجدل لايليق بعريسين. ألاتريد أن تكون لنا ليلة ؟

شـــرف الدين : إنى قلق وخائف.

ســـــعـــــاد : مع القلق والخوف لن تعرف كيف تقطفنى، وسنفوت عرسنا: إهدأ الآن، ودعنا نتأرجح على هذا الحلم العجيب. تعال..

شـــرف الدين : لو يطمئن قلبى. !

ســـــعـــــاد : ومن يبحث عن الاطمئنان فى مثل هذا الوقت ! إننا نحلم.. دعنا نحلم.. دعنا نحلق فوق الأنقاض والعذاب.. دعنا نبدع نصراً صغيراً يخصنا نحن الاثنين. سنعلو على تيمور والتتار، سنعلو على المرارة والهزيمة، وسنحلق فى سماء صيفية زرقاء.

أغمضْ عينيك، وانزلق إلى الحلم. إننا نطير، إننا نطير. هل تحس أننا نطير. ا

شـــرف الدين : حقا.. إننا نطير.

(يتعانقان، يتماوجان، يتداخل جسداهما تداخلاً إيقاعياً وفاتناً. وببطء شديد تتلاشى الإضاءة فوقهما)

تفصيل (٩)

(أمير القلعة آزدار فى أبهى حلله، يبدو كأنه خرج لتوه من بين يدى المزين. يقف منتصب القامة، ويبدو واضحاً أنه يبذل جهداً كى يحافظ على انتصاب قامته. يدخل شهاب الدين وهو الآخر قد تزين وأصلح هندامه وانتصبت قامته).

شهاب الدين : حان الوقت أيها الامير.

آزدار : لولا الأطفال والنساء، ويأس الرجال، لوددت أن أدفن فى هذه القلعة.

شهاب الدين : ليت الموت أكرمنى، وجنبنى هذه اللحظة.

آزدار : هل تفحصت كل شىء ؟

شهاب الدين : تفحصت قيافة الرجال واحداً واحداً، وزودتهم بكل أوامرك. لاتقلق.. سيكون موكبنا مهيباً، وجديراً بمآثرك.

آزدار : المآثرة لكم قبل أن تكون لى.

شهاب الدين : لولاك..

آزدار : **(مقاطعا)** ماذا فعلت بابنة التاذلى ؟

شهاب الدين : غُسلت وكُفّنت وصلى عليها شيخ القلعة. هى الآن فى

النعش، وسيحمل نعشها ستة من الرجال.

آزدار : حقا.. كانت ابنة أبيها. وسنصرُّ على دفنها إلى جواره. لعلها فاقتنا حكمة. عجّلت موتها كى تتقى العار، وتحمى شرفها من دنس التتار. هل نخرج. !

شهاب الدين : (مغالباً الدمع فى عينيه) بعد أن نخرج، لن يعرف أى منا مصيره.. وربما لن نلتقى بعد الآن، ولا يتاح لنا أن نتبادل الكلام، أحب أن تعرف أيهاالأمير، أنى فخور لأنى كنت إلى جانبك طوال هذه الحرب. ولا أخفى عنك.. أحياناً كنت لا أفهم مواقفك. وأحياناً، كانت تساورنى الشكوك. ولكن حين كنت ترد على ابن أبى الطيب، بددت كثيراً من الشكوك وسوء الفهم. أعرف الآن أن صمودنا لم يكن من أجل أهداف صغيرة، كالسلطان والإمارة، وأن مفهومك عن الولاء والواجب يتسع ليشمل الأمة وكيانها. ومع هذا بقيت فى نفسى غمّة.. لو أننا حلمنا وجازفنا، تماماً كما يفعل الشعراء أحياناً، أمّا كان يمكن أن يتغير مجرى الأحداث.. وأن تكون هذه المآثرة بداية تحول وانبعاث..

آزدار : إنى أفهمك ياشهاب الدين.. كانت قدرتك على الحلم،

ورغبتك فى المجازفة تثيران إعجابى وحبى. وأعترف أنى ترددت، وخفت أن أجاريك فى الحلم والمجازفة. فى أوقات الضعف والانحلال، الأحلام باهظة التكاليف. وكنت أخشى دائما أن نتوه فى الحلم، ونضيّع الممكن. لاأعلم.. ربما كنت مخطئاً، أو تنقضى اندفاعة الشباب. ولكن منذ بداية هذه المحنة وأنا أتامل ما حولى، فلا أجد إلا واقعاً موحلاً، وزمناً سقيماً. وفى الواقع الموحل والزمن السقيم، قد يكون إنجاز الممكن هو الحلم، وهو المجازفة. نعم.. أحببت قدرتك على الحلم، ورغبتك فى المجازفة، وأرجو ألاتنسب ترددى وأخطائى إلى الضعف، أو إلى الحسابات الصغيرة.

شهاب الدين : هل تسمح لى أن أعانقك أيها الأمير.. ؟

(يتعانقان عناقاً طويلاً، والدموع تنسكب من عينى شهاب الدين)

صوت شعبان : (بعيداً كالصدى) يمّه.. ماتت.. القلعة يمّه.. جوعان.. يمّه.. يمّه

(تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وبعد أربعين يوماً من الحصار، وبعد أن نفدت الذخيرة والمؤونة، واستحالت المقاومة، سلّم الأمير قلعته.

وكان موكبه حين خرج من القلعة أمراً عجباً. كان يتقدم رجاله، وكلهم لاشلّت أيديهم، فى أحسن هيئة، يشمخون برءوسهم عالياً، ويتقدمون بكل كبرياء وثبات.

وكان فى الموكب نعش ابنة التاذلى التى قتلت نفسها كى لاتقع فى أسر التتار.

وحين وقف أمير القلعة بين يدى تيمور، قابله بالسخط والغضب، وقال له : «أفنيت صاغيتى، وقضيت على حاشيتى، فإن قتلك مرة واحدة لايشفى غليلى، ولكن أعذبك على كبر سنك، وأزيدك كسراً على كسرك، فقيّده بقيد زنته سبعة أرطال ونصف، ولم يُعرَف له خبر.

وبعد أن تم لتيمور أخذ القلعة، طلب ابن مفلح وأصحابه، ولما وضعوا أمامه المال الذى فرضه، عبس فى وجوههم ، وقال:

«هذا لايساوى فى حسابنا إلا ثلث المبلغ، وظهر لى أنكم عجزتم». ثم قبض على ابن مفلح، وبعد أن ألزمه بكتابة جميع خطط دمشق، وحاراتها وسككها، أمر بضربه حدّ التلف.

تفصيل (١٠)

(فى بيت ابن مفلح. ابن مفلح راقد على فراش الموت وعنده دلامة)

ابن مفلح : هل جئت تودعنى. !

دلامة : أطال الله عمرك. هى وعكة وتمرّ.

ابن مفلح : إنى أميز الموت، وأحس دبيبه فى جسدى.

دلامة : دعنا من الموت ياشيخ، وأجبنى: ماذا جرى، وأين اخطأنا. ؟

ابن مفلح : إنى أحاول أن أرتب جواب هذا السؤال لأنى سأحتاجه حين أقف بين يدى الخالق.

دلامة : وماذا وجدت.. ؟

ابن مفلح : أين أخطأنا يادلامة. ! منذ البداية أخطأنا. حين نزعنا من الناس سلاحها أخطأنا. حين جردنا أسوارنا من دفاعاتها، أخطأنا. حين صدقنا وعود العدو، أخطأنا. بين الأعزل الخائر، وبين العدو المدجج بالسلاح، لايكون اتفاق، ولاسلام بل إذعان واستسلام. إنى اعترف أمام الله أنى أخطأت. ونفسى الأمّارة بالسوء والتاجر دلامة، وابن خلدون، وعلماء السوء زينوا لنا الخطأ. لو قاتلنا، لما خسرنا

ما خسرناه، ولما أصاب المدينة كل هذا الدمار. انظر.. لم تُدمَّر بيوت الناس وأرزاقها فقط، بل دمرت نفوسهم، وفسدت قلوبهم. ظهرت الخبائث، والأحقاد، والأنانيات، وصارت المدينة وكأنها غابة خلت من الدين والقيم والأخلاق. نعم.. منذ البداية أخطأنا، وكان الخطأ جسيماً.

دلامـــــــة : ولِمَ أخطأنا.! عقدنا معهم تجارة، ونفذنا ماعلينا. ألم يكن العقد واضحاً! ألم يعطونا كلمة وميثاقا.! فاين الخلل؟

ابن مـــفلح : إنك دعيٌّ معرفة يادلامة. تحسب أن التجارة تستوعب المحنة وتحتوى العدوان. ولكن فاتك أن التجارة والعدوان توأمان. إن التجارة بين الأقوياء والضعفاء ليست بيعاً وشراءً، بل هى حرب وعدوان. أخطأنا يا دلامة، وها نحن نخسر كل شيء . اذهب ودبّر أمرك. قسّم تيمور أحياء المدينة على أمرائه، ولن يبقَ فى مخابئك ما يرنّ.

دلامـــــــة : ماذا تقول. ! أخبرنى ماتعرفه. يجب أن أعرف..

ابن مـــفلح : اغرب عنى، ودعنى أمت بسلام.

دلامـــــــة : يجب أن أعرف.

ابن مـــفلح : (يغمض عينيه واهناً) اغرب عنى يادلامة.

(يتـردد دلامـة فـتـرة، يبـدو زائغ العـينين ثم يخرج على عجل)

(تتلاشى الإضاءة)

مـــؤرخ قـــديم : وفرّق تيمور المدينة على أمرائه. فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم، ونزل كل أمير فى قسمه، وطالب سكانه بالأموال.

حينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لايوصف، وجرت عليهم من العذاب ألوان رهيبة كالضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكوساً، وغمرَ الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس، دخل فى أنفه حتى تكاد نفسه تزهق.

وكان الرجل إذا أشرف على الهلاك، يُخلّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. ومع هذا تؤخذ نساؤه وأولاده الذكور، فيتقاسمهم الأمير وأصحابه.

وكان الرجل المعذَّب يرى امراته أو ابنته وهى توطأ، وولده وهو يلاط به، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل هذا من غير تستر فى النهار وبحضرة الملأ من الناس.

تفصيل (١١)

(فى دار دلامة. أمير وعساكر من التتار. يبدو دلامة معلقاً من رجيله ومنكوساً، وتحت رأسه كانون يوقَد فيه الحطب، وقربه يقف ابنه مذعوراً ودامع العينين)

الأمير : أين المال ؟

دلامة : **(محشرجاً)** أعطيت كل مالدى.

الأمير : شرموط..كذاب..

دلامة : أقسم..

الأمير : شرموط.. أنت واحد لايعرف الرب **(للعساكر)** انفخوا النار.

(يؤجج العساكر النار تحت رأسه، فينطلق دلامة بالصراخ والعويل)

الأمير : أين المال. ؟

دلامة : **(محشرجاً)** ألم تفتشوا البيت كله.! لامال.. لامال..

الأمير : كذاب ابن كذاب. خنوا ابنه. وافعلوا به.

الابن : **(مرعوباً)** أبى..

(يجر عسكريان الابن، ويمضيان به إلى مكان جانبى)

الأمـــيـــر : أهل الشام أرذال.. كذابون. الكذب لا يمشى علينا.

الابـــــن : (صارخاً، متوجعاً من مكانه) أبى انجدنى يا أبى.. أبى انقذنى يا أبى.

دلامـــــة : اصبر يا بنىّ، وتجلّد.

الابـــــن : (صارخاً كالجريح) لاأستطيع.. قل لهم يا أبى.. أخبرهم إذا كنت تخفى شيئا.

(يتحول صوت الابن إلى خوار وحشرجة)

الأمـــيـــر : أين المال؟

دلامـــــة : لامال..

الأمـــيـــر : شرموط. سأربّى بك أهل الشام (إلى العساكر)غمُّوه، وهاتوا حريمه

(يندفع عساكر إلى داخل البيت، بينما يملأ أحدهم خرقة برماد ناعم ثم يجمع أطرافها، ويضعها على أنف دلامة المنكوس. ينفض رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويزرقّ وجهه، ويتصاعد من فمه لهاث مختنق، يخرج عسكريان من البيت وهما يجران ريحانة وخلفها نساء)

ريحـــانة : الكل.. تتار.. الكل.. تتار.

الأمـــيـــر : جربوها من ثيابها.

ريحـــانـة : **(وهى تتخبط بين أيديهم)** لا.. لا.. الكل .. تتار..

(يمسكها الأمير من يدها بعد أن تصبح شبه عارية، ويدوِّرها حول رأس دلامة)

الأمـــيـــر : انظر.. هذه محبوبتك. هل تريد أن نفعل بها.!

دلامـــة : **(كالمحتضر)** افعلوا ما تشاؤون.. لامال..

ريحـــانـة : **(تبرق عيناها.. تتكلم كالطفلة)** ماذا.. تريدون.. أيها.. التتار؟

الأمـــيـــر : نريد المال.. أين يخبىء هذا الشرموط المال والذهب؟

ريحـــانـة : الذهب.. فى الخراء

دلامـــة : **(يشهق وكأنه يلفظ أنفاسه الاخيرة)** اخرسى يا ابنة القحبة.

الأمـــيـــر : **(يصفع ريحانة)** هل تسخرين منى. !

ريحـــانـة : إنى.. لا.. أسخر.. والكل.. تتار: هو .. لا.. يعرف .. أنى.. أعرف الذهب.. فى.. الخراء.

الأمـــيـــر : فسّرى ماذا تعنين..

ريحـــانـة : اكسر.. أرض.. الكنيف.. وانزل.. فى الخراء.. تجد.. صناديق المال.. والذهب.

دلامـــة : **(لافظاً أنفاسه)** قتلتِنى.. أيتها.. الـ...

الأمـــــيـــــر : (يفتل معصم ريحانة، فتنثنى متأوهة لتصبح في حـــضنه) سنرى إن كنت صادقة (إلى العساكر) اكسروا أرض الكنيف، وانزلوا فى الخراء.

(تضحك ريحانة ضحكات قصيرة متلاحقة، وكأن أحداً يدغدغها، ثم يتعالى ضحكها تدريجياً، ويختلط بالبكاء فيما تتلاشى الإضاءة) .

مـــؤرخ قـــديم : واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عـشـر يومـاً. آخـرها يوم الثـلاثاء، الثـامن والعشرون من شهر رجب، فهلك فى هذه المدة بالعقوبة والجوع خلق لايعلم عددهم إلا الله) .

تفصيل (١٢)

(ابن خلدون وشرف الدين على أهبة الرحيل والعودة إلى مصر)

ابن خلدون : الحمد لله على الخلاص من ورطات الدنيا.

شرف الدين : وأين الخلاص.!

ابن خلدون : ها نحن نعود بلاغرم كما جئنا. كلمت تيمور مرتين حتى رضى أن يفك أسرك.

شرف الدين : **(بامتعاض)** شكراً يا سيدى.

ابن خلدون : ما الذى لايرضيك.!

شرف الدين : كيف تستطيع التحدث عن الخلاص من ورطات الدنيا، والنار تلتهم المدينة، والطرقات تسدها الجثث والأعضاء المبتورة... وامرأتى اختارت الموت، والأهل تفرقوا بين السبى والقتل..

ابن خلدون : زوجتك. !

شرف الدين : لن تفهم شيئا يا سيدى.

ابن خلدون : لاتفقد حياءك وأدبك. تغيرت كثيرا خلال هذه الرحلة. ما فات فات، ولنحمد الله على سلامتنا.

شرف الدين : **(مباعداً بينه وبين دوره)** لم يفهم ابن خلدون شيئاً، كان مشغولاً بنفسه وطموحه. فلم تمسّه

معاناة الناس. لم يسمع بكاءنا، ولم يفهم أحوالنا. كانت هذه المحنة بالنسبة له، ورطة عابرة سلم منها، وتجاوزها. أما شرف الدين فكيف يحبس دموعه.. وكيف يعتبر البقاء على قيد الحياة خلاصاً وسلاماً..

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم : ولما قضى الامراء الوطر من المدينة، أباحها تيمور للعساكر، فدخلوا كأمواج البحر. سيوفهم مسلولة، وهم مشاة. فنهبوا ماقدروا عليه من آلات الدور وغيرها، وسبوا النساء والأولاد والرجال، وساقوهم فى حبال ثم طرحوا النار فى المنازل والدور والمساجد وكان اليوم عاصف الريح، فعمّ الحريق جميع البلد حتى صار اللهب يكاد أن يصل إلى السحب، وعملت النار فى البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة. احترق الجامع الأموى والأسواق والقياسر والحمامات والبيوت.

وصارت دمشق، بعد البهجة والوفرة، أطلالا بالية ورسوماً خالية، لاتُرى بها دابة تدب، ولاحيوان يهب، سوى جثث احترقت، وصور فى التراب تعفرت. فإنا لله وإنا إليه راجعون لعظم هذه المصائب، وشناعة هذه النوائب.

تفصيـــــل أخيـــر

(الشيخ جمـال الدين بن الشرائجى مـرفوعـا على صليب)

جـمـــال الدين : أنا الشيخ جمال الدين بن الشرائجى، أمنت أن العقل خير من النقل، وأن الله عادل لايقدّر على عباده الفقر أوالذل، فأذا ع أحدهم أمرى، فاستدعانى قضاة دمشق الأربعة. وبعد السب والضرب، وإحراق كتبى، رمونى فى سجن القلعة. وحين حل تيمور فى ظاهر المدينة، وجاء سلطان مصر والشام لمدافعته، أبكانى القهر، وعزَّ علىّ ألاّ أكون مع الأمة فى مواجهَة هذه المحنة. فالتمست من السلطان النظر فى أمرى. فلما سأل وعرف مقالتى، غضب وأمر أن يضيق علىّ فى سجنى. ثم رحل السلطان فجأة، وترك دمشق أكلة لتيمور، فقرر القضاة والأعيان أن يسلّموا المدينة للعدو إلاّ قلعتها، فقد أبى الأمير آزدار إلاّ أن يقاوم ويقاتل فاتصلت بالأمير، ورجوته أن يطلق سراحى، ويضمنى إلى مقاتليه. فخشى أن يلومه الناس، أو أن يؤخذ بذنبى.. وطلب منى مترفقاً أن أتجّمل بالصبر، وأن أستعين بالله على بلائى، ثم

انهزم صاحب القلعة، واستبيحت دمشق، وذات يوم قادنى عساكر إلى حضرة تيمور. وكان يجلس عند قدميه نفر من علماء المسلمين عرفت منهم الشيخ محى الدين بن العز، والشيخ عبد الرحمن بن خلدون. فاستفسر عن خبريِ وفحوى خطابى فإنما أخبروه بلسانه الأعجمى، علا وجهه الغضب، وأمر أن أُجلَد وأُصلَب حتى ينفذ فىّ قضاء الله. فعجبت من اتفاقهم فى أمرى على ما بينهم من الحرب وسفك الدماء :

(يدخل شعبان متجرجراً وفزعا، يحملق فى المصلوب ثم يفر صارخا)

شـــعـــبـــان : **(وهو يركض بين الأنقاض)** يمّه.. فزعان.. الموت يمّه.. كله ميت يمّه فزعان.. يمّه الموت.. يمّه فزعان.. بزّك يمّه.. بزّك يمّه... عطشان يمّه... فزعان يمّه..

مـــؤرخ قـــديم : وكان الماء يتدفق فى بردى بزيادة وشدة لم تُعهَده دمشق منذ سنوات طوالٍ .

(تتلاشى الإضاءة)

رقم الايداع : ٣١٤٢ / ١٩٩٤
I . S . B . N
977 - 07 - 0139 - 2

سعد الله ونوس

- مولـود فـى طرطـوس بسوريا عام ١٩٤١.

- حصل على ليسانس الصحافة من آداب القاهرة عام ١٩٦٣.

- عمل رئيسا لتحرير مجلة «أسامة» للأطفال ، و «الحياة المسرحية» و «قضايا وشهادات»

- من ابداعاته : حكايا جوقة التماثيل (١٩٦٥) - «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» (١٩٦٨) - «الفيل يا ملك الزمان» (١٩٦٩) - «مغامرة راس المملوك جابر» (١٩٦٩) ، سهرة مع أبي خليل القباني (١٩٧٣) - الملك هو الملك (١٩٧٧) - رحلة حنظلة من الغفلة إلي اليقظة (١٩٧٨) اغتصاب (١٩٩٠) - يوم من زماننا (١٩٩٣)

- ترجمت أعماله إلى : الروسية - الفرنسية ، الأسبانية - البولندية - الألمانية - الانجليزية .

هـــذه المسرحية

هذه هى أول مسرحية تنشر لسعد الله ونوس ، الكاتب السورى الشهير فى مصر.

ليس التاريخ بمثابة وقائع منفصلة . لكنه صراع قوى ، وارادات ، وتضاد «مصائر ..»

هذا هو المشروع الأكبر فى مسرح سعد الله ونوس . ففى مسرحيته «منمنمات تاريخية» لا يصبح التاريخ قناعا أو اسقاطا لوقائع وأحداث وعلاقات الحاضر ، بقدر ماهو رؤية مكتملة يستكشف قوانينها الأساسية .

وفى زمن التراجعات والكوارث فى العالم الاسلامى ، وعلى أبواب دمشق ، تقدم تيمور لنك لإقتحام المدينة . وجاءت الهزيمة المكتملة ، عبر تفاصيل عديدة داخل نسيج علاقات المدينة : وصفقة الوطن ، ومصالح التجـــار ، ومحنـة العلمـــاء والمؤرخين ، ورجال الدين ، وعبث الخلاص الفردى .

«منمنمات تاريخية»

حوار جدلى بين الماضى ، والحاضر . فمن أجل أن نفهم ذلك الحاضر الذى نحن بين يديه ، علينا معاودة قراءة التاريخ لنرى فيه مالم نكن نراه من قبل .

كونيكا
Konica

كاميرات

أفلام

معامل طبع وتحميض

شرائط فيديو

الزيكبل

شركة إسباى

٩٦ ش أحمد عرابى - المهندسين

ت: ٣٤٤٠٥٨٢ فاكس: ٣٤٦٦٥٩٣